# مَعينُ العِرفان في آياتِ الجزء الثلاثين من القرآن

أ.م.د. علي السالمي
عضو الهيأة العلمية في الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية
مشهد المقدسة/ إيران

The source of knowledge in the verses of the thirtieth part of the Qur'an

Asst.Prof.Dr. Ali Al-Salmi
Member of the scientific staff at Razavi University of Islamic Sciences / Mashhad / Iran
Email: alisalemi21@gmail.com

## ملخص البحث

القرآن الكريم موسوعة دينية من المعارف والمعالم الإلهية، وحاولت هذه الدراسة أن تأخذ الجانب العرفاني من بحارها الزاخرة في تحليل النص القرآني، وقد تمّ اختيار الجزء الثلاثين منه تحديدًا؛ حيث استلّ من سُوره بعض الآيات التي يُستشفّ منها المفاهيم العرفانية التي تدعو برشحاتها التربوية إلى هداية البشر عبر توطيد العلاقات الروحية في ما بين العبد ومعبوده، والسير على نهجه بالكفّ عن المحارم، والاجتناب عن المعاصي والتزوّد بالخيرات والصالحات كي تتعمّق علاقة العبد بمعبوده ويزداد منه قربًا ورضوانًا ، فبذلك يتحقّق فلاحه يوم الجزاء وتكون الجنة مأواه، فالآيات العرفانية في الجزء الثلاثين معظمها تحثّ الإنسان على الخشية من الله ، والابتعاد عن التعلّق بالدنيا وزخارفها حتى لا ينخدع بها فتهوي به إلى أسفل سافلين، وتنقطع أسباب اتصاله بربّه الباري، ومن هذا المنطلق يستضيفه إلى فيضه الرباني للحدّ من تعلّقه بها بالذكر والتسبيح والاستغفار، ولا ييأس الله من عبده وإن كان من الجبابرة الملحدين الذين لا يرجى رشدهم ولا تنصاع نفوسهم إليه، فهو جل جلاله يتمّ الحجة عليه بشتى الوسائل الإبلاغية والإعجازية، وبأساليب مختلفة من الترفق والتلطف والعتاب والتذكير وحتى الدعاء عليه من فرط حبّه للإنسان، وبهذه الأساليب يسعى إلى شدّ انتباه عبده العاصي إلى فعله ؛ ليرتدع عن الكفران والخسران ولو بالدعاء عليه عسى أن ينتبه من غفلته ويرعوي عن غيه ويؤوب إلى معبوده، وقد توصلت الدراسة إلى أنّ أغلب الآيات التي تتحدّث عن حال المؤمنين والكافرين بالمقارنة يتمثّل فيها الجانب العرفاني، وتتمتع بالبعد النفسي والعاطفي أكثر مما تتمتع بالبعد الردعي والتهديدي، وما ذلك إلّا رحمة من رب العالمين حتى يستيقظوا من غفلتهم وينظروا إلى حالهم ومآلهم الذي لا مفرّ منه.

الكلمات المفتاحيّة: العرفان، العبد ، المعبود، الحبّ الإلهي.

## Abstract

The Holy Qur'an is a religious encyclopedia of divine knowledge and landmarks, and this study attempted to take the mystical side of its rich seas in analyzing the Qur'anic text, and the thirtieth part of it was specifically chosen; Where he extracted from his surahs some verses from which he deduces the mystical concepts that call for the guidance of human beings through their educational explanations by strengthening the spiritual relations between the servant and his deity, and following his approach by abstaining from forbidden things, avoiding sins, and providing yourself with good and righteous deeds, so that the servant's relationship with his deity will deepen and become closer to him. and satisfaction, thus his success will be achieved on the Day of Recompense and Paradise will be his abode, Most of the mystical verses in Part Thirty urge a person to fear God and stay away from attachment to the world and its trappings so that he is not deceived by it, causing him to fall to the lowest level, and the means for his connection with his righteous Lord are cut off. From this standpoint, he welcomes him to His divine abundance in order to limit his attachment to it by remembrance, glorification, and seeking forgiveness, and not to despair. God is one of His servants, even if He is one of the tyrants who are atheists and whose souls do not hope for guidance and whose souls do not submit to Him. He, the Majestic, is the one who

establishes the proof against Him through various informative and miraculous means, and with various methods of kindness, gentleness, admonition, reminding, and even supplication upon Him out of His excessive love for mankind, With these methods, he seeks to draw the attention of his sinful servant to his action so that he will be deterred from disbelief and loss, even by praying for him, in the hope that he will wake up from his negligence, turn away from his error, and turn to his idol. The study concluded that most of the verses that talk about the condition of believers and unbelievers in comparison represent the mystical aspect, and enjoy the dimension. Psychological and emotional, it has more of a deterrent and threatening dimension, and this is only a mercy from the Lord of the Worlds so that they wake up from their slumber and look at their inevitable situation and fate.

Keywords: gratitude, servant, deity, divine love.

## المقدمة

إنّ الله أنزل القرآن على قلب نبيه الكريم صلوات الله عليه يضمّ بين دفّتيه المعارف الإلهية ، والمعالم الصمدية مفصلها مجمل ومجملها مفصل تدهش اللبيب الخبير فتذهب به إلى آفاق فكرية فسيحة، وأعماق بعيدة يغور فيها الفكر ويُنجد فيصيد منها جواهر المعاني الفريدة ، وفرائد المفاهيم التربوية تدعو البشر إلى الطريق السداد والحياة السعيدة النزيهة من الآثام، فإن القرآن الثقل الأكبر الذي وصّانا به الرسول الأكرم ﷺ حيث تتمثّل فيه مباني الإسلام الحقة السامية ، ويتجلى فيه الإعجاز اللفظي والمعنوي بشكل مثير يحار منهما العقل البشري، فإذا أمعن النظر فيه طالب الحق ، وتأمل في آياته الباهرات دون عناد لا ريب يذعن مقرًّا به ملبّيًا لأوامره ونواهيه، ويسعى سائرا على نهجه المهيع الذي رسمه الله له، وما حاد عن صراطه المستقيم.

إذ تحمل الآيات الشريفة الأسس المتعالية لتكامل الإنسانية، وتمهد له الأرضية لاجتياز مسيرة الدنيا والفلاح فيها وادخار الزاد منها للدار الباقية فقسم منها: آيات الأحكام والتشريع، وقسم: قصص الأنبياء ومعجزاتهم، وقسم: عبر ومواعظ وحكم، وقسم: وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين، وقسم: ذكر العقائد والأصول الإسلامية، وقسم: آيات فيها رشحات العرفان وومضات الهداية وما إلى ذلك من المفاهيم الشريفة، فإن القرآن بحار العلوم الزخارة لا يحيط بما فيها من الأسرار والعجائب إلّا الراسخون في العلم الذين وهبهم الله خزائن معرفته وجعلهم خاصّته وخلفاءه في أرضه .

وهذه الدراسة المتواضعة تحاول تسليط الضوء على جملة من الآيات الشريفة التي تتجلى فيها الجوانب العرفانية التي تعكس الحبّ والشوق والتقرب بين العبد ومعبوده، أو المعاني التي يبدو فيها الجانب العاطفي بينهما جليًّا، أو الحالات النفسية التي تعكسها الآيات العرفانية وتنمّ عن الحبّ الإلهي، وكل ما يتّصل بعلاقة المخلوق بخالقه على الصعيد العرفاني.

وتظهر أهمية البحث في تقديم نماذج من الآيات العرفانية ، والإلمام بجوانبها المعرفية

الإلهية التي تتجلى فيها العلاقات الروحية بين العبد ومعبوده، والحب الخالص الذي ينشأ من تقرب العبد من معبوده بارتداعه عن المعاصي وارتدائه لباس التقوى، والتجنب عن كل ما يسدل حجاب الفراق بينهما ويحول دون وصالهما.

وتهدف الدراسة إلى معرفة الآيات العرفانية، والارتواء من مناهلها التربوية والروحية، والتّشفي من مفعولها السحري في سبيل ترويض النفس وتربيتها حتى تتمكّن من القضاء على الموانع التي تمنعها من البلوغ إلى الغاية الإلهية المنشودة.

وقد اتبعت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، حيث يتم اختيار الشواهد القرآنية التي يستشف منها المفاهيم العرفانية، والاهتمام بتحليلها والتعليق على ما ورد في تفسيرها، وأحيانا نقد ما طرحه المفسرون في تفسير الآيات ، وتأويلها على وفق الأسلوب العرفاني عند أهل البيت عليهم السلام وصولا إلى ما نروم إليه في هدف البحث، وربما نستعين ببعض الشواهد القرآنية والروائية اللازمة في تفسير الظواهر العرفانية.

من جملة الأسئلة الرئيسة التي تحاول الدراسة الإجابة عنها، هي: أولًا: كيف تتجلى لوامع الآيات العرفانية ومضامينها في النص القرآني ولا سيما في الجزء الثلاثين؟ وثانيًا: هل تتمكّن هذه الآيات العرفانية في عرضها أن توفّر للعبد سبل الهداية والانصياع إليها؟ وهل تلعب دورًا تربويًّا لتعالي النفس وتحكيم العلاقة الروحية بين العبد ومعبوده؟ وما مدى تأثيرها على القلوب وتشجيعها على التقرب منه سبحانه؟

ولا توجد دراسة مستقلة في هذا المجال تجدر الإشارة إليها إلّا أنّ في مطاوي بعض الكتب الدينية والتفاسير القرآنية ولا سيما التفاسير التي تتّبع في تفسير الآيات المنهج العرفاني لمحات وإشارات إلى بعض الآيات الشريفة التي تتمتع بالبعد العرفاني المحض، ونحن نسعى أن نعلّق عليها وندرسها دراسة موضوعية تحليلًا ، وأحيانًا ببعض النقد إن أمكن ذلك اعتمادًا على الذوق العلمي والبراهين الساطعة ، والشواهد القاطعة من القرآن ، وروايات أهل البيت عليهم السلام في تحليل النماذج العرفانية ، حيث اخترنا تحديدا بعض آيات سور الجزء الثلاثين.

حقيقة العرفان وضوابطه التفسيرية

قبل الخوض في صلب البحث ، والقيام بمهمّة التفسير تحسن الإشارة إلى المعنى اللغوي والاصطلاحي للفظة "العرفان" ، ثمّ ذكر ضوابطه التفسيرية ؛ لنتخذها أسسًا في تفسير ظواهر القرآن العرفانية، فالعِرفَانُ في اللغة : العلم، قال ابن سيدة: "ويَنفَصِلانِ بتَحْديد لا يَليق بهذا المكان، عَرَفَه يعْرِفُه عِرْفَة وعِرْفَانًا وعِرِفَّانًا ومَعْرِفةً واعْتَرَفَه، قال أَبو ذؤيب يصف سَحابًا:

مَرَتْه النُّعامَى، فلم يعْتَرِفْ ... خِلافَ النُّعامَى من الشامِ رِيحا

و رجل عَرُوفٌ وعَرُوفَة: عَارِفٌ يَعْرِفُ الأُمور ولا يُنكِر أَحدًا رآه مرة، و الهاء في عَرُوفَة للمبالغة ، والعَرِيف والعارِفُ بمعنًى مثل عَلِيم وعالم، والجمع عرفاء[1].

وهناك عدّة تعريفات وردت عن المعنى الاصطلاحي أقربها هو: "العلم بالله سبحانه من حيث أسماؤه وصفاته ومظاهره وأحوال المبدء والمعاد ، وبحقائق العالم وبكيفية رجوعها إلى حقيقة واحدة هي الذات الأحديّة ، ومعرفه طريق السلوك والمجاهدة لتخليص النفس عن مضايق القيود الجزئية واتصالها إلى مبدءها واتصافها بنعت الإطلاق و الكلية"[2].

ومن هذا المنطلق فالعرفان يعدّ من العلوم الشريفة؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم، ومعلومه هو الله سبحانه وما يتصل به من صفاته العليا ، وأسمائه الحسنى والإلمام بمعارفها ومعانيها العميقة، والوصول إلى الكمال المطلق من طريق السلوك الصحيح ، والانقطاع عن المظاهر المادية والسير نحو الساحة القدسية المنزهة عن كل عيب وشين.

ولا شكّ أنّ العرفان الإلهي ومنهجه الإشاري لابدّ له من ضوابط يجب مراعاتها في تأويل الآيات وهي أربع:

أ) ألّا يناقض المعنى الإشاريُّ المستنبطُ معنى الآية ، ب) أن يكون المعنى الإشاريُّ معنى صحيحًا في نفسه ، ج) أن يكون في لفظ الآي ما يشعر به ، د) أن يكون بينه وبين معنى

(١) لسان العرب، ٩ / ٢٣٦.
(٢) رسالة التوحيد والنبوة والإمامة ، ٧.

الآية ارتباطٌ وتلازم[1].

فيجب ألّا تعدّ هذه الإشاراتُ العرفانية من باب التفسير المقطوع به ، ولابدّ أن ينتبه المفسّر ألّا يكون لها معارضٌ شرعيٌّ أو عقليٌّ؛ حيث إنّ المعنى الظاهر هو الأصل ولا يسْقُط بالمعنى الإشاريّ، بل إنّ الأخير تابع للأوّل، فلا يجوز الميل عن الظاهر؛ لأنّه حجة ولا تسقط الحجة إلّا بحجة يجب التسليم لها، وعليه فمتى اجتمعت هذه الشروط الرئيسة التي ذكرت استحسن الأخذ بها، وقد حاولنا في دراستنا مراعاتها، والعناية بها، ونسأل المولى أن يسدّد خطانا فيما نروم إليه.

لمسات عرفانية في سورة النبأ:

قال الله سبحانه في سورة النبأ يصف حال المتقين الأبرار الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، ويفصل ما آتاهم من فضله الواسع في الجنة من الخير الكثير والملذات الدنيوية التي كانوا يرغبون فيها في الدنيا، وهي الحدائق والخمائل الجميلة الخلابة ، والفواكة المختلفة ومنها الأعناب التي فيها المنافع الجمة، والفتيات الحسان ، والأشربة المتنوعة السائغة، فضلا عن أنّهم لا يسمعون فيها شيئا من الترهات والخزعبلات وكل ما يسيئ حالهم ويعبّس وجوههم، "وقال بعض أهل المعرفة لا يسمعون فيها كلاما إلّا من الحق فإن من تحقّق بالحقّ لا يسمعه الحقّ إلّا منه، ولا يشهده سواه في الدنيا والآخرة"[2] ، حيث يقول عزوجل: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً ﴿٣١﴾ حَدائِقَ وَأَعْناباً ﴿٣٢﴾ وَكَواعِبَ أَتْراباً ﴿٣٣﴾ وَكَأْساً دِهاقاً ﴿٣٤﴾ لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذَّاباً ﴿٣٥﴾ جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً ﴿٣٦﴾ ﴾.

"لما ذكر الله سبحانه في الآيات السابقة من هذه السورة المباركة ما للكفار من عذاب أليم، وما يجلب لهم من الخوف والدهشة أخذ يشرع في ذكر ما للمؤمنين من نصيب الخير والسداد ؛ حتى تسكن قلوبهم وترتاح نفوسهم إليه ، حيث إنّهم انقادوا إليه في الدنيا فأعطى الله جزاءهم وفاء بما وعدهم، قال الله سبحانه ﴿ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ﴾

(١) فصول في أصول التفسير ، ٧٦.
(٢) تفسير روح البيان ، ١٠ / ٣٠٩.

[سورة ق:٣٥]، فكل ما يشاؤون يتحقق لهم على وفق المشيئة الإلهية؛ لأنّ إرادتهم أصبحت بمنزلة إرادة الله"[١].

يجازي لله سبحانه خلقه إزاء حسناتهم ما يوافق حالهم من التزامهم بالمباني الحقة والصبر عند الشدائد ، والمصائب التي ابتلاهم بها، فلا يضيّع أجر العاملين بالخيرات والسائرين على نهجه ، كما لا يفوت عنه مثقال ذرة من أعمالهم الصالحة التي فعلوها لوجهه، ومن هذا المنطلق ذكر لهم نماذج من إفضاله ومواهبه التي تتوق إليها النفوس وتهوى إليها القلوب، وقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً﴾ أي فوزا و ظفرا بالمطالب والأماني ، أو موضع فوز ثم فسره بقوله: حَدائِقَ ... إلخ[٢].

وكل ما ذكر في هذه الآية الكريمة من الخيرات هو القليل من وفيرها، فنعمه لاتعدّ ولا تحصى، فالله عدّد أمتعها وألذّها في نفوس البشر كي يثير انتباهم ليجدّوا في سبيل الصالحات، ويدّخروا الثواب لعقباهم لينالوا ما يشتهون فيها، فكل ذلك لأجل الحثّ والتشجيع إشفاقًا على خلقه ومحبة لهم، فإنّه يريد لهم الفوز فيها لا الخسارة والندامة، "فقد تضمنت هذه المذكورات أنواعا من اللذات الحسية كما لا يخفى جَزاءً مِنْ رَبِّكَ مصدر مؤكد منصوب بمعنى إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازًا فإنه في قوة أن يقال: جازى المتقين بمفازا جزاء كائنا من ربك، والتعرض لعنوان الربوبية للإشارة إلى أنّ ذلك حصل بترتيبه وإرشاده تعالى و إضافة الرب إلى ضميره عليه الصلاة والسلام دونهم لتشريفه صلّى اللهّ تعالى عليه وسلم"[٣].

فرحمته الواسعة تتجلى في هذه الآية بشكل محسوس وقد غلبت على غضبه؛ لأنّ صفاته الرحمانية حاكية عن ذلك، على رغم أنّه لا يمكن إنكار قول أنّ الله لا يدع الكفرة يستولي عليهم الغرور لرحمته، ولا يترك العاصين يائسين من مغفرته "فمن هذا المنطلق في كثير من الآيات القرآنية التي وصف فيها عذاب الجحيم نشاهد أنّ الله يتبعها بآيات تصف نعم الجنة، فالنبيّ صلوات الله عليه كان يتسمّ بهاتين الصفتين أي (بشيرا ونذيرا) وقد وصفه

(١) انظر: أنوار درخشان ، ١٧ / ٣٠٨-٣٠٩.
(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ٦ / ٤٣٤. وانظر لطايف الإشارت ، ٢ / ٦٧٨.
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ، ١٥ / ٢١٨.

القرآن بهما"[1].

لمسات عرفانية في تفسير سورة النازعات:

قال الله سبحانه في سورة النازعات مكلّمًا رسوله الكريم بأسلوب لطيف ، وكلمات معبرة ومشجعة ؛ لإصلاح الأمة الإسلامية حيث يذكّره بما جرى على أخيه موسى كليم الله من المصاعب والمتاعب في التبليغ سابقا؛ ليقوّي عزمه في التبليغ وإرشاد الناس اللّذينِ هما هدف الرسالات الإلهية كافة؛ حيث إنه يخاطبه قائلا:

﴿هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى ۝١٥ إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً ۝١٦ اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى ۝١٧ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى ۝١٨ وَ أَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى ۝١٩ فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَ عَصى ۝٢١﴾.

فالسياق يدلّ على أن الله يواسي النبي صلوات الله عليه في همومه وغمومه ، وما يعاني من المشركين في مكة في بداية دعوته الإلهية، فقوله: ﴿هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى﴾ تذكير له ، والشدّ من عزمه في مواصلة طريقه لنصرة الدين الحنيف ، ومجابهة الضلال وعليه تعدّ على حدّ قول الشيخ مغنية: "هذه تسلية من اللهّ سبحانه لنبيه الكريم محمّدًا ﷺ وإنّ اللهّ سينصره على أعدائه كما نصر موسى الكليم"[2].

وقوله تعالى: ﴿هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى﴾ أي هل تودّ أن تتزكّى، وتتطهّر؟ لأن الغاية المنشودة من الدعوة إلى الحق هي التزكية من كل رجس وكفر يقيّد الروح الإنسانية المجبولة على الفطرة الإلهية، والله سبحانه يريد أن يسيّر عباده إلى التحرّر من كل محبس مظلم يمنع الإنسان عن الانطلاق نحو المسار الصحيح، وفي هذا الأسلوب الاستفهامي، ترفق وتلطّف في الدعوة إلى اللهّ، وفي مواجهة عناد المعاندين وكبر المتكبرين باللطف واللين، وإنّ الحكمة تقتضي في مثل هذا المقام، أن يستميل الداعي إلى الحقّ من يدعوه إليه، وأن يترفّق في الدخول إلى قلبه، حتى يجد منه أذنًا صاغية، وقلبًا واعيًا، إذا كان فيه بقية من عقل، أو يقظة من

(١) انظر مخزن العرفان در تفسير قرآن ، ١٤ / ٣٠٢.
(٢) تفسير الكاشف ، ٧ / ٥٠٩.

ضمير .. ولو جاء الداعي إلى من يدعوه إلى العدول عن الطريق الذي هو عليه لو جاءه آمرا، أو زاجرا، أو فاضحا لحاله المتلبس بها، لما وجد منه إلّا إعراضا وازورارًا، وإكراهًا لسماع ما يلقى إليه من حديث، فكيف إذا كان هذا المدعوّ جبارًا عنيدًا كفرعون؟

و لهذا جاء قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ راسما لموسى هذا المنهج الحكيم لدعوة هذا الجبار العنيد، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى، فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾ (سورة طه:٤٣- ٤٤).

فالمرحلة الأولى للدعوة هو اتخاذ المناهج التربوية الأصيلة وسيلة لإقناع المعاند مهما كانت درجة تمرّده وعنجهيته، والخلق السجيح اللين والسلوك الأخلاقيّ المزوّد بالحكمة والحنكة يترك أثره في النفوس المريضة نفسيًّا،و تمهّد له الأرضية لقبول ما يلقى على مسامعه لو كان طالبا للحق وأهله، "وفي هذا الأسلوب القرآني الخطة المثلى، والمثل الكامل القويم، لأصحاب الدعوات، من القادة، والزعماء، و المصلحين..إنهم لن يبلغوا بدعوتهم مواطن الإقناع، ولن يحصلوا منها على ثمر طيب، إلّا إذا جعلوا الرفق واللين سبيلها إلى الناس، وإلّا إذا غذّوها بمشاعر الحبّ، والرغبة الصادقة في الإصلاح، وبخاصة إذا كان الداعي يدعو إلى حقّ، ويهدف إلى هدى وإصلاح: ﴿ ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ( سورة النحل: ١٤٥)"[١].

وقوله : "فَتَخْشى" أي الخوف الملازم للخشوع، ولا يصل الإنسان إلى الدرجات العالية ، والمنازل الرفيعة حتى يجمع مابين العمل الصالح والخشية من ارتكاب المحارم ، فإنّ المتقين تمتعوا بهما وارتقوا إلى أعلى المراتب منزلة عند الله تعالى ، "إذ الخشية لا تكون إلّا بعد معرفته قال اللهّ تعالى ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾ (سورة فاطر: ٢٨) ، وجعل الخشية غاية للهداية؛ لأنها ملاك الأمر، ومن خشي اللهّ تعالى أتى منه كل خير، ومن أمن اجترأ على كل شر"[٢].

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن ، ١٦ / ١٤٣٨-١٤٣٩.
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ، ١٥ / ٢٣٠.

فالخطاب العاطفي الموجّه إلى النبي صلوات الله عليه لا يختلف عن الخطاب الموجه إلى موسى روحًا ومعنى، فقد أمره الله بالانطلاق إلى فرعون ليكلمه بعبارات تلين قلبه، وتحرك ضميره ارتداعًا عن الطغيان والضلال، وإن لم يستجب لهدايته وأدلته، يحاول مرة أخرى بأسلوب آخر وهو الإتيان بالمعجزة لتستميل عقله وقلبه إلى الإقرار والإذعان بالحق، فتصبح المرحلة الثانية أقوى حجة من الأولى، ولذلك قال: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ فلفظة الكبرى توحي بوجود آية صغرى وهي : الحجة الكلامية والدعوى الحقة التي أدلى بها موسى على فرعون الطاغية ، حيث تعلّمها بوساطة الفيوضات الربانية التي سالت بين جوانحه ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ بلا وسيلة الملك وسفارة السفير؛ إذ هو حينئذ من إفراط المحبة ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ عن رذائل الأغيار ، وعن الالتفات إلى ما سوى الملك الجبار طُوىً ، أي قد طويت دونه حينئذ مطلق التعينات والنقوش والتموجات الطارية على بحر الوجود من عواصف الإضافات المتموجة والنكبات وبعد ما قد تقرر ﷺ في مقعد الصدق، وتمكن على مكمن اللاهوت أمره سبحانه بالالتفات إلى عالم الناسوت ، والرجعة نحوه للإرشاد والتكميل تتميمًا لقضية الحكمة البالغة المتقنة الإلهية بقوله: اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ العالي العاتي الطاغي الباغي إِنَّهُ قد طَغى ، وتجاوز عن مقتضى العبودية طغيانا فاحشا إلى أن قد ادّعى الألوهية لنفسه[1].

يا لها من رحمة على أكثر الناس تجبّرًا ، وأعتى الجبابرة ظلمًا، وهل يوجد ظلم أكبر من الكفر بالله؟ فقد ادّعى الربوبيّة لنفسه وهو من الممكنات، ولكن سبحانه على رغم ذلك خاطب نبيه ليقوم بمهمّته واعظًا رادعًا عن انغماس فرعون في مستنقع التيه والتغطرس فربّما ينجو من الهلاك المحتّم، أليس ذلك من تجليّات محبته الإلهية وألطافه الغامرة إلى عبده الطاغي، فهو يسعى إلى نجاته من خلود النار بكل الوسائل الإبلاغية والإعجازية، ويحاول كبح جماحه وهدايته إلى طريق الصواب، ومن هذا المنطلق قال: ﴿وأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ يعني: فذهب ودعاه إلى التّوحيد فطالبه بالحجّة فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرى وهي العصا، وقيل:

(١)الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية ، ٢ / ٤٨٢.

اليد البيضاء ، وقيل: جميع الآيات الّتي بعث بها، ويحتمل أنّ فاعل "فَأَراهُ" هو اللهّ لانقطاع الكلام الأوّل[1].

وربما معجزة العصا أولى من غيرها بالأخذ، فبها انكشفت الحقائق للخاصة والعامة؛ حيث إنها كانت بين الملأ جهرًا وعلانية فلا سبيل لإنكارها والاستشكال عليها؛ ولذلك سحرة فرعون لما رأوها اندهشوا مستسلمين لها، فآمنوا بالله سبحانه حيث كانت الحجة عليهم أشهر من نار على علم.

إلى قوله تعالى حيث يقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى ۝٤١﴾.

فالعبد إذا تأمل عظيم ملكوت ربه، وأمعن النظر في علوه وعظمته ولاحظ بين الموجودات الممكنات صغره، وعلم أنّ سبحانه صاحبها ومسخرّها فهو الأحد القهار، انبرى عندئذ بحكم مقدمات الحكمة يردع النفس عن اقتحام الأهواء والمهالك، ومن اتصف بهاتين الصفتين الخشية ، والكفّ عن المحارم فيجزيه الله الجنان مسكنًا؛ لأنّهما أساس الفلاح وباب كل خير وسداد، واعلم أنّ هذين الوصفين مضادّانِ للوصفين اللّذينِ وصف اللهّ أهل النار بهما فقوله: وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ ضد قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغى﴾ (سورة النازعات: ١٧)، وقوله: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى﴾ ضد قوله: ﴿وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا﴾ (سورة النازعات: ٣٨)، واعلم أنّ الخوف من اللهّ، لا بدّ وأن يكون مسبوقًا بالعلم باللهّ على ما قال: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾ (سورة فاطر: ٢٨) ولما كان الخوف من اللهّ هو السبب المعين لدفع الهوى، لا جرم قدّم العلة على المعلول، وكما دخل في ذينك الصفتين جميع القبائح، دخل في هذين الوصفين جميع الطاعات والحسنات[2].

والتفسير العرفاني يظهر واضحًا ؛ إذ لو أخذنا قول الباري دليلا إلى التمسك به والخشية من اقتراف محرماته ولكن ليس ذلك من المنظار الربوبي على أنّه المعبود ، يجب الانصياع

(١) كشف الأسرار وعدة الأبرار ، ١٠ / ٣٧٠.
(٢) مفاتيح الغيب ، ٣١ / ٥٠.

لأوامره بل من جهة علاقة العبد بمعبوده الذي يحسن التقرب إليه؛ إذ لا معبود سواه، وذلك أسمى علمًا ومعرفة بجلاله ما يجعل العبد أن يرتدع عن الأسباب التي تحول دونهما بسبب اجتراح المعاصي، فهذا ما يوفّر له أن ينزاح عن عقابه دون شك في العقبى، وويرتقي إلى الدرجات العليا، فقال ابن العربي في تفسير قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ﴾ "بالترقي إلى مقام القلب ومشاهدة قيوميته تعالى على نفسه وَنَهَى النَّفْسَ لخوف عقابه أو قهره عَنِ هواها فَإِنَّ الْجَنَّةَ مأواه على حسب درجاته"[1].

وجدير بالإشارة أنّ من رأى جبروت الله وأدرك عظمته ، تنبثق في داخله أضواء الرحمة الإلهية فيخشع قلبه ، وذلك يفضي إلى اجتناب المحارم والرجوع إلى الفطرة التي فطر الناس إليها.

لمسات عرفانية في تفسيرسورة عبس

وفي سورة عبس لمحات عرفانية ، ورشحات ربانية لمن تبصّر في آياتها ، ولا سيما في الآيات ٣ و٤ وأيضًا في ١٠و١١، فإنها تعدّ من صميم العرفان الإلهي، وسيأتي شرحه إن شاء الله؛حيث يقول جلّ وعلا: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١ أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى ۝٢ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى ۝٥ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۝٦ وَما عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى ۝٨ وَهُوَ يَخْشى ۝٩ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۝١٠ كَلاَّ إِنَّها تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ ۝١٢﴾.

قال المرتضى علم الهدى قدس الله روحه : ليس في ظاهر الآية دلالة على توجهها إلى النبي ﷺ بل هو خبر محض لم يصرح بالمخبر عنه، وفيها ما يدل على أنّ المعني بها غيره؛ لأنّ العبوس ليس من صفات النبي ﷺ مع الأعداء المباينين فضلا عن المؤمنين والمسترشدين، ثم الوصف بأنّه يتصدى للأغنياء ويتلهى عن الفقراء لا يشبه أخلاقه الكريمة، ويؤيد هذا القول قوله سبحانه في وصفه ﷺ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ فالظاهر أنّ قوله: "عَبَسَ وَتَوَلَّى" المراد به غيره، وقد روي عن

(١) تفسير ابن العربي ، ٢ / ٤٠٦.

الصادق عليه السلام أنّها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي صلى الله عليه وآله فجاء ابن أم مكتوم ، فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس ، وأعرض بوجهه عنه فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه[1]،وكيف يعامل النبي صلى الله عليه وآله الأعمى الفقير بالشدة والغلظة ، وهو الأولى بالمساعدة والاعتناء به، ويعتني بشؤون السالم الغني الكافر المتباهي بنفسه بوجه هشّ بشوش أليس ذلك من فعل السلاطين المتكبرين والطبقة المترفة الثرية ؟!

وكيف يناسب ذلك ما ذكر عنه في التأريخ من المساواة بين الفقير والغني ومجالسته للفقراء المعوزين بوجه مقبل بالفرح والبشاشة، فبخلقه العظيم استمال القلوب وسخّرها، ولو كان غير ذلك لناقض القرآن نفسه، فالآيات في كثير من المواضع يفسّر بعضها بعضا، ولما تبيّن بالنص الصريح أنّه كان في قمة الخلق والرحمة على الضعفاء وجب أن نضرب الآراء التي تنافي الظهور المذكور عرض الجدار كما أمرنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله، وعليه لمّا ثبت بالدليل العقلي والنقلي أنّ العبوس في وجه الجائي الأعمى ليس من خلقه وأدبه فلا محيص من القول أن العابس هو المشرك المستكبر كما ورد في الرواية الشريفة عن الصادق عليه السلام.

والشاهد العرفاني في قوله: ﴿وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى﴾ يظهر جليًّا؛ حيث إنّ الله لا ييئس من عبده أبدا ولو كان متماديًا في عصيانه أو متجاهلا أمره، فهو يخبر العابس على عبوسه، قائلا له على سبيل الاستنكار والتعريض بفعله النذموم ، ربّما يتّعظ بموعظة أو تخطر له أمور يأخذ بها فينجو من التهلكة ، ويؤوب إلى الله تائبًا فيعلو لديه شأنه ومقامه، فالإنسان لا يعلم ماذا ستجري عليه وعلى غيره من الحالات، ومن هذا المنطلق يحثّ الناس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أملًا في هداية عباده العاصين إلى الحق، ومن هذا الباب قوله ﴿كَلاَّ إِنَّها تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ﴾ فالمجال مفتوح لمن يريد أن يتّعظ بالقرآن؛ لأنّه يدعوه إلى الخير ويردعه عن الشر، ويذكّره بالله بشتى الطرق الممكنة كي يؤوب إليه، وعليه فالله سبحانه لا يقطع أمله عن أوبة العبد إليه على رغم إلحاحه على

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ، ١٠ / ٦٦٤. وانظره أيضا مخزن العرفان در تفسير قرآن ، ١٥ / ٥.

البعد منه بعصيانه، فكيف العبد يقطع أمله عنه في غفران ذنوبه ، ويأس من روحه ومغفرته معاذ الله من ذلك، ومن هنا تبيّن وجه عظم ذنب اليأس من الله سبحانه؛ لأنّه يقطع الصلة الروحية بين العبد ومعبوده تمامًا دون حجة واضحة عند العبد المأيوس من رحمته؛ حيث إنّه ظلم نفسه أولًا وظلم الله بيأسه منه ومخالفته لحقّه.

إلى قوله تعالى حيث يذكر ألطافه على الإنسان وكفرانه لها، قائلا: ﴿ قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ﴿٢٤﴾ ﴾.

فقوله ﴿ قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ ﴾ جملة دعائية جاءت لغرض التوبيخ؛ حيث إنّ الإنسان المبالغ في كفران النعم الإلهية كأنه لم ينتبه إلى نفسه، ولم يدقق في صنع الباري العجيب، وكيفية خلقه حيث ركّبه تركيبًا يعجز عن مثله الجن والإنس، ولو أراد معرفة خالقه وعظمته لكفاه النظر في نشأته الأولى لمّا كان نطفة ، وأخذت تنمو طورًا بعد طور حتى تحوّلت إنسانًا سويًّا ومُهّد له الطريق السداد، ووهبه العقل ليميز بين الحق والباطل، وأودع في نفسه طاقات هائلة تمكنه من القضاء على المشاكل التي تعترضه في حياته وكل ما يحتاج إليه من أجل الوصول إلى حياة سعيدة .

وعند حلول أجله أمر سبحانه بدفنه بعد مماته، ونهى عن التهاون في أمره ، بل يجب التعجيل في تجهيزه إشارة إلى كرامته عنده حتى بعد خروج الروح منه فكيف إذا كان حيًّا؟ فالله عزّوجل خلقه ثم أماته فأقبره، ثم يبعثه كما كان للحساب والجزاء، وأما قوله تعالى: "إذا شاءَ" فيشير إلى علمه بقيام القيامة وأن كل شيء هو رهن إرادته﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ﴾، الضمير في يقضي يعود إلى الإنسان المهمل المتساهي، ويبدو التحليل العرفاني في الجملة الدعائية نفسها جليًّا ؛ حيث إنّ الله من فرط حبه للإنسان في كثير من الآيات بأساليب مختلفة يحاول ردعه عن الكفران والخسران ولو بالدعاء عليه عسى أن ينتبه من غفلته ويرعوي عن غيّه ويؤوب إلى معبوده مؤمنًا شاكرًا لأنعمه؛ ولذلك أنّ الله عزّوجل كثيرًا ما يحثّ على التدبّر في آياته ، ويذكر للإنسان نماذج ملموسة من نعمه التي لا تنكر بغية

هدايته إلى طريق الصواب.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ﴾ هو من جملة تلك النماذج الملموسة الحسية التي أنعم الله على الإنسان، فعليه أن يفكر في طعامه ليرى ألطاف ربّه وسعة إفضاله عليه؛ حيث لم يتركه حائرا في أمره بل يسّر له ما يسدّ به جوعه، ويقضي به حاجاته الدنيوية ؛ لأنّه بالطعام يتمكن الإنسان من القيام بأعماله اليومية، فهو يلعب دورًا أساسًا في حياة البشرية؛ لذلك خصه الله بالذكر لهذه الميزة الكبرى.

وقال العلامة الطباطبائي بأنّ المراد من "الإنسان -كما قيل- غير الإنسان المتقدم المذكور في قوله: "قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ" فإنّ المراد به خصوص الإنسان المبالغ في الكفر ، بخلاف الإنسان المذكور في هذه الآية المأمور بالنظر فإنه عام شامل لكل إنسان، ولذلك أظهر ولم يضمر"[1].

أقول لا دليل على هذا القول فإن سبب إظهار الاسم وعدم إضماره ربما يكون لطول الجملة، فالبلاغة تقتضي في هذا الموضع ذكرها ثانية لكي لا يرهق الذهن في كشف مرجع الضمير والله أعلم.

وقد ورد في تفسير قوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ﴾ أيضًا، كيف قدّره ربّه ودبّره له وجعله سببا لحياته، وقال مجاهد: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ داخلا وخارجا، كيف يدخل إذا أكل وكيف يخرج إذا طرح، وعن الحسن عن الضحاك بن سفيان الكلابى أنّ النّبي ﷺ، قال له: "يا ضحاك ما طعامك؟- قال يا رسول اللهَّ: اللّحم واللّبن. قال ثمّ يصير الى ما ذا؟- قال إلى ما قد علمت"[2].

فمراحل الحصول على الطعام كثيرة متشعّبة ويحتاج الإنسان أن يكدّ ويعمل من أجل اجتيازها طول الليل والنهار، ولولا نظرة الباري الرحيمة لما توفّرت الأسباب جميعها فقد سهّل له السبيل من أجل الحصول على قوته، وقد فضل بعض عباده على الآخر منهم في

(١) الميزان في تفسير القرآن، ٢٠ / ٢٠٩.
(٢) كشف الأسرار وعدة الأبرار ، ١٠ / ٣٨٥.

مقداره قلة وكثرة لحكمة اقتضاها ،كل ذلك العطاء المتيسر لبقاء الإنسان حتى لا تنقطع صلته عن معبوده الذي لا يريد له العسر والأذى ، بل يريد له كل الخير والهناء ، فعليه ألّا ينسى ما أولاه ربّ العالمين ويزداد بشكره رزقًا وسعة.

إلى قوله يصف حال الأبرار المؤمنين الذين فازوا بالسهم الأوفر في الجنان ، فظهروا بمظهر حسن بسّام، وحال الفجار الكفار الذين خسروا رضوان الله فظهروا بمظهر سيء قبيح ينمّ على سوء عملهم في الدنيا، وذلك حيث يقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُها قَتَرَةٌ ۝٤١﴾.

"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ أي مضيئة من صلاة الليل-كما قاله ابن عباس- ، أو من آثار الوضوء- كما قاله الضحاك- ، أو بسبب الخلاص من علائق الدنيا والاتصال بالرحمة ومنازل الرضوان- ، كما قاله الرازي- ضاحِكَةٌ أي معجبة بكرامة اللهّ ، أو مسرورة بالفراغ من الحساب، مُسْتَبْشِرَةٌ أي فرحة بما تشاهد من النعيم الدائم والثواب الجسيم، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ، أي كدورة تَرْهَقُها أي تدركها عن قرب، قَتَرَةٌ أي سواد كالدخان أُولئِكَ، أي أصحاب هذه الوجوه هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ، أي الجامعون بين الكفر باللهّ والكذب على اللهّ"[1]، فالله سبحانه بهذه الآيات الكريمة يصف حال المؤمنين الفائزين بالجنة والكافرين الخائبين من الرضوان، والتحليل العرفاني يتضح حيث قدّم الله سبحانه تصويرًا واضحا عن حال كلا الفريقين، حتى يفكّر الإنسان في مآله ويختار أحدهما بعدما انكشف له البون الشاسع بين وصفيهما، وبالطبع كل إنسان لا يختار إلا جنة الخلد، ولا ريب أنّ هذه الآيات تزيد من معنوياته لينطلق إلى حياة حافلة بالتزكية والعمل الصالح لينال غايته المنشودة في الآخرة، ومن هذا المنطلق أغلب الآيات التي تتحدّث عن حال المؤمنين والكافرين بالمقارنة تتمتع بالبعد النفسي والعاطفي أكثر مما تتمتع بالبعد الردعي والتهديدي، وما ذلك إلى رحمة من رب العالمين لعباده حتى يستيقظوا من غفلتهم ، وينظروا إلى حالهم ومآلهم الذي لا مفرّ منه.

(١) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد ، ٢ / ٦٠٦.

لمسات عرفانية في تفسير سورة التكوير

قال الله سبحانه تعالى في سورة التكوير يخاطب العالمين، ويدعوهم إلى الرشاد بلغة موحية معبرة تمثّل العلاقة الروحية ما بين العبد ومعبوده بشكل واضح؛ حيث يقول: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

تتجلى المحبة الإلهية في هذه الآيات الشريفة التي نبرات خطابها تفيض حبًّا وعناية بمسير العالمين، ومصيرهم الأخروي وتذكيرًا لهم بربوبيته، وأنّه هو الذي يستحقّ الانطلاق إليه دون سواه، فما سبيل الخير والسداد إلّا سبيله، وما طريق النجاة إلّا طريقه ومن هذا المنطلق، قال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ يقال للرّاكب رأسه في الأمر أين يذهب بك و أين تذهب؟، وقيل: معناه أين تعدلون عن هذا القرآن وفيه الشّفاء والبيان؟ ، وقال الزجاج: أيّ طريق تسلكون أبين من هذه الطّريقة الّتي قد بيّنت لكم؟- وقيل: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ عن عذاب اللهَ ، أو عن ثواب الله ، ثمّ بيّن فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ أي- ما القرآن إلّا موعظة للخلق أجمعين ، ثمّ خصّص، فقال: ﴿لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ أي- القرآن نذير لمن أحبّ الاستقامة ، واتّبع الحقّ وعمل به وأقام عليه ، وعن أبي هريرة، قال: لمّا أنزل اللهَ على رسوله: ﴿لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ قالوا: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم، فأنزل اللهَّ تعالى: ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ أعلمهم أنّ الهداية والتّوفيق إلى اللهَّ ، أي- ما تَشاؤُنَ الهداية والاستقامة إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ توفيقكم. فمن شاء الله له الإيمان آمن، ومن شاء له الكفر كفر[1].

ربما في الوهلة الأولى يبدو أنّ الموارد التي ذكرت في تبين معنى "فأين تذهبون" كلها صحيحة ، ولكن سياق الآية وفحوى الخطاب القرآني يرشد المتلقي إلى أنّ المراد من الاستفهام بـ "أين" هو العتاب والتنبيه على ضلال الطريق ؛ كي تستفزّ قلوبهم وتستيقظ نفوسهم، وينتهوا عن إلحاحهم على الباطل؛ لأنّ الذكر الحكيم قد فصّل مآل الخير

(١) كشف الأسرار وعدة الأبرار، ١٠ / ٣٩٩.

والشر ومواردهما؛ حيث لم يجعل لطالب الحقّ ذريعة، وللمنكر مجالًا للتشكيك؛ لأنّها أوضح من الشمس في رابعة النهار لمن أراد الصلاح في حياته والفلاح في آخرته، وقد يمهّد الله سبحانه الهداية لمن سار في سبيله، وجاهد من أجل مرضاته فهو أولى بالهداية من غيره قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت:٦٩]. فليس الأمر كما يتصوره بعض الغافلين بأنّ الله يصطفي جماعة من الناس ويسيرهم في طريقه المستقيم ، وجماعة منهم يسيّرهم نحو طريق الضلال دون ميزان عادل يحتكم إليه، وعليه فأعمال العباد هي بمنزلة مرآة مجلوّة تصور هدايتهم أو ضلالتهم.

وفي هذا الإطار قال السيد قطب: "والواقع أن دلائل الهدى و موحيات الإيمان في الأنفس والآفاق من القوة والعمق والثقل بحيث يصعب على القلب التفلّت من ضغطها إلّا بجهد متعم ،. وبخاصة حين يسمع التوجيه إليها بأسلوب القرآن الموحي الموقظ.

وما ينحرف عن طريق اللهّ- بعد ذلك- إلّا من يريد أن ينحر. في غير عذر و لا مبرر!، فإذا سجل عليهم إمكان الهدى، ويسر الاستقامة، عاد لتقرير الحقيقة الكبرى وراء مشيئتهم، حقيقة أنّ المشيئة الفاعلة من وراء كل شيء ، هي مشيئة اللهّ سبحانه ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ ..و ذلك كي لا يفهموا أنّ مشيئتهم منفصلة عن المشيئة الكبرى، التي يرجع إليها كل أمر ، فإعطاؤهم حرية الاختيار، و يسر الاهتداء، إنما يرجع إلى تلك المشيئة المحيطة بكل شيء كان أو يكون"[1].

و التفسير العرفاني يتضح في الأسلوب الاستفهامي الذي فيه التشجيع على السير في طريق الله، فإنّ الخطاب القرآني بشتى الوسائل التعبيرية يحاول شدّ انتباه عباد الله إلى سبيله شفقة عليهم، حتى يسلكوا نحوه ويتّعظوا بكلامه ويرتدعوا عن محارمه وتعود الحالة الروحية إلى النفوس العليلة وتروّيها بآثارها الربانية، وتتعمق علاقتها بربها الواحد القهار، فإن علاقة النفس بربها تزداد قربًا إذا أخذت تسلك في منهجه، وتبتعد بعدا بقدر ابتعادها عنه.

(١) في ظلال القرآن ، ٦ / ٣٨٤ .

لمسات عرفانية في تفسير الانفطار

قال الله سبحانه تعالى في سورة الانفطار يعاتب النفس على ما قدّمت بين يدي خالقها من عمل صالح أو سيء وأخّرت من أعمال سيئة اقتدى بها المقتدون، ويخاطب الإنسان بأسلوب النداء متعجّبًا من طغيانه وكفرانه بنعمه وعطاياه الجزيلة، ويحثّه على تلافي ما بدر منه؛ حيث يقول: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ ﴾.

فالنفس تعلم كل العلم ما يصدر منها من أعمال خيرها وشرها، ولما علمت ذلك وجب عليها فهم عواقبها وعقباها، فإن كانت من جملة الأعمال التي يتقرب بها إلى الله التزم بها وواظب عليها ؛ كي لا تنقطع أسباب اتصاله بمعبوده، فإنّها وسائل التقرب إليه، وإن كانت من جملة الأعمال السيئة وجب الانقطاع عنها والاستغفار منها؛ لأنها بمنزلة العراقيل التي تحول دون تقرب العبد إلى معبوده، وعليه فمن الضروري استدراك ما فات بترويض النفس ، وتأنيبها وتطويعها على فعل الخير كي تفتل الحبال المقطوعة ما بينه وبين معبوده، وتعود العلاقة الروحية بينهما بعد ما كانت منفصلة بسبب السيئات الصادرة من العبد جهلًا وطمعًا في الدنيا الفانية.

وعليه "فقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ﴾ أي ما قدمت من خير أو شر، و أخرت من سيئة سنّتها و اقتدى بها فيها و قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ قال: أي ما غرك بدونه فقطعك عنه مع لطفه وكرمه.

قيل: ما القاطع؟ قال: العبد للهّ و اللهّ لعبده، وليس شيء أقرب إليه من قلب المؤمن، فإذا حضر الغير فيه فهو الحجاب، ومن نظر إلى اللهّ بقلبه بعد عن كل شيء دونه، ومن طلب مرضاته أرضاه بحلمه، ومن أسلم إلى اللهّ تعالى قلبه تولى جوارحه فاستقامت، وإنما شهدت قلوبهم على قدر ما حفظوا من الجوارح، وقال عمر بن واصل تلميذ سهل: إذا قرأ هذه الآية قال: غرني الجهل بترك العصمة منك"[1].

(١) تفسير التستري ، ١ / ١٨٨.

فالأمور التي يغترّ بها العبد كثيرة بعدد الملذات والشهوات، فإنّ العبد إذا انغمس فيها تعوّد عليها وأنساه الشيطان ذكر ربه، وأغراه بما يحلو له منها، وأبعده عن جناب الرحمان وآلاء السبحان، فتُقطع سبل الاتصال بينه وبين معبوده.

و قد ورد في تفسير "أنوار درخشان" بأنّ الآية جاءت لغرض التوبيخ والتهديد؛ حيث إنّ الإنسان على رغم تمتعه بالقوة العقلية يرفض الاعتقاد بالعقبى وكان من المفروض اعتقاده بها، والحال أنّ الاعتقاد بالتوحيد والربوبية أساسه يرجع إلى الإيمان بالقيامة[1].

وليس الأمر كذلك فإنّ المراد من الاستفهام تنبيه العبد على باطله وعتابه على التقصير في استدراك ما بدر منه من الهفوات والمعاصي.

واختلفوا في المراد من: "الكريم" في قوله تعالى: ﴿ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؟ فقال البعض: وصف سبحانه نفسه هنا بالكريم ليلهم عبده المذنب الجواب، ويعلّمه أن يقول غدًا إذا سئل عن ذنبه: غرّني عفوك وكرمك .. وقال الشيخ محمد عبده: هذا تلاعب بالتأويل، و تضليل للناظر في كتاب اللهّ .. واللائق أن يفسر "الكريم" هنا بالعظيم في جميع صفاته تعالى، وإنّ من كان كذلك فلا يترك عبيده سدى بلا سؤال و لا جزاء، بل يحاسبهم ويثيب الأخيار منهم، ويعاقب الأشرار، وعليه فلا ينبغي للإنسان أن يغترّ بالدنيا وزخرفها.

وللإمام علي عليه السلام كلام طويل حول هذه الآية، أدرج مع خطب نهج البلاغة، ويتلخص في مجمله بالآتي: ما الذي جرّأك أيها الإنسان على معصية ربك، وأنت تقيم في كنفه، وتتقلب في نعمه؟ هل غرك منه إقباله عليك بالنعم، وأنت متول عنه إلى غيره؟. أما تعلم أنّ هذا الإقبال تفضل منه عليك، وإمهال لك كي تؤوب إلى رشدك وترجع عن غيّك؟ ، وعلى هذا يكون المراد بكرمه تعالى في الآية هو إمهاله لعبده المذنب ، وعدم أخذه بالعقوبة العاجلة، وإنّ عليه أن يبادر إلى التوبة والإنابة، ولا يغترّ بالإمهال والإمداد[2].

والتحليل العرفاني يتضح في قوله ﴿ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ملموسًا فإن العبد لمّا علم بحلم

(١) انظر انوار درخشان ، ١٨ / ١٧.
(٢) تفسير الكاشف ، ٧ / ٥٣٠-٥٣١.

ربّه على رغم ابتعاده عنه لاجتراح الذنوب وإمهاله له، فهو لم يفتأ يستقطبه إلى نفسه بأسلوب لطيف فيخاطبه خطاب الشفيق الودود: ما بالك أيها العبد لا تؤوب إليّ، وكأن عفوي زادك بعدًا عن مرضاتي، وكأنّك قد نسيت كرمي عليك وصفحي عنك في كل معصية أتيت بها، أما آنَ وقت الرجوع أيها الغافل ؟! ، فكل ذلك من أجل الاندفاع إلى الله وإيجاد صلة قوية به، فبها يتجلّى الكمال الروحي للإنسان ويشعر بالسعادة، ومن أحسّها صغرت عنده كل الأحاسيس الدنيوية.

ثم يصف يوم القيامة وهولها حيث لا قوة إلا لله الواحد الصمد، فكل الأمور بيده يصرفها كيف ما يشاء؛ حيث يقول سبحانه:

﴿ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله ﴿١٩﴾﴾.

فالمراد من ﴿ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ ﴾ إشارة إلى تعظيم القيامة وتهويلها؛ حيث فيها تشعر النفوس بالخنوع والتذلل فلا تحرك ساكنا إلّا بإذن ربها فكل شيء رهن إرادته، ويتجلى سلطانه عيانًا فتخسأ عيون الجبابرة المتغطرسين، وتخشع له عيون المؤمنين.

"قال الواسطي: في قوله: ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ إشارة إلى فناء غير اللهّ تعالى، وهناك تذهب الرسالات والكلمات والغايات، فمن كانت صفته في الدنيا كذلك كانت دنياه أخراه ، وأمّا قوله: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله﴾ فهو إشارة إلى أنّ البقاء والوجود للهّ، والأمر كذلك في الأزل وفي اليوم وفي الآخرة، ولم يتغيّر من حال إلى حال، فالتفاوت عائد إلى أحوال الناظر، لا إلى أحوال المنظور إليه، فالكاملون لا تتفاوت أحوالهم بحسب تفاوت الأوقات، كما قال: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا[1].

فالحقائق تظهر في القيامة للملأ ، ولا توجد حقيقة أمثل من ظهور عظمة الله بين خلائقه، حيث تتوافد إليه الناس خاضعين متذللين عند جبروته عاجزين عن محاججته وخصامه.

قال الواحدي: "والمعنى أن اللهّ تعالى لا يُملّك في ذلك اليوم أحدا شيئا من الأمور كما

(١) مفاتيح الغيب ، ٣١ / ٨١.

ملكهم في دار الدنيا"[1]؛ لأنّه يضمحل زمن الاختيار والإرادة المجازية بحدوث القيامة التي تعكس فيها الأمور، فلا يملك أحد شيئا، وليست الطبيعة كما كانت سارية في الدنيا فتذهب الاعتبارات الملكية لدى الله سبحانه، فالملك له وحده ، وقد ورد عن ابن عباس في قوله: "وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ، قال: يريد الملك والقدرة ، والسلطان والعزة والجبروت ، والجمال والبهاء ، والهيبة والإلهية لله وحده لا شريك له"[2].

لمسات عرفانية في تفسيرسورة المطفّفين

قال الله سبحانه في سورة المطففين يصف حال الكفرة المذنبين، وما غلب عليهم من آثار الآثام التي ارتكبوها حتى أبعدتهم عن رحمته الواسعة؛ حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

فلما أصرّت النفوس الضعيفة على اقتراف الذنوب والمعاصي، وتركت المحجّة البيضاء واختارت اللهو واللعب غاية مكسبها حادت بذلك عن وجهه الكريم وسبيه الجزيل، ولم يعد لرجوعها إلى الله أملًا ، ولا لخشوعها محلا من الإعراب، فالشر فيها قد غلب عليها وأجهز عليها، والذين يتركون الله وينسون ذكره ينساهم الله، وإذا ما أنساهم ذكره أولعوا بارتكاب محارمه، وكانوا بذلك من الأخسرين أعمالا إلّا إن يتوبوا ويستغفروا له.

روى العياشي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام، قال: "ما من عبد مؤمن إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء فإذا أَذنب ذنبًا خرج في تلك النكتة نكتة سوداء فإذا تاب ذهب ذلك السواد وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض ، فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبدا ، وهو قول الله تعالى ﴿كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، وقال أبو عبد الله عليه السلام: يصدأ القلب فإذا ذكرته بآلاء الله انجلى عنه، وقال أبو مسلم: إنّ اعتيادهم الكفر وألفتهم له وغفلتهم ، صار غطاء على قلوبهم فلا يعقلون ما ينفعهم؛ لأنّ ترك النظر في العواقب وكثرة المعاصي والانهماك في الفسق يقوي الدواعي في الإعراض عن التوبة

(١) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد ، ٢ / ٦١٠.
(٢) التفسير القمي ، ٢ / ٤٦٧.

والإيلاع بالذنوب فصار ذلك كالغالب على القلوب الرائن عليها، ثم استأنف ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ يعني أنّ هؤلاء الذين وصفهم بالكفر والفجور محجوبون يوم القيامة عن رحمة ربهم وإحسانه وكرامته،عن الحسن وقتادة، وقيل: ممنوعون من رحمته مدفوعون عن ثوابه غير مقبولين ولا مرضيين، عن أبي مسلم، وقيل: محرومون عن ثوابه وكرامته عن علي عليه السلام"[1].

فلا يوجد ذنب أعظم من الكفر بالله، وذلك ما يزيده طغيانًا وفسادًا في الدنيا، ولولاه لكان الطريق إلى ردعه أسهل وإلى إرشاده أبسط ، ومن ههنا يعرف سبب حجب الكفار عن الرحمة الإلهية والألطاف الرحمانية؛ لأنّ الله يغفر الذنوب جميعًا إلّا الشرك به ، ولأنّ الكافرَ به عصى مَن السماوات مطويات بيمينه، وأنكر مَن الوجود يشهد بوجوده، وتشهد له الكائنات الحية بعظمته وسمّوه، ومن هذا المنطلق اتضح البعد العرفاني؛ حيث إنّ الله سبحانه لا يريد أن يبتعد عبده بعصيانه وكفره عن حوزته الربانية فيصير بذلك من المحجوبين عن رحمته المقطوعين عن ألطاف محبّته ؛ ولذلك فتح باب التوبة حتى لا تنغمس بالذنوب فطرته، وبمجرد التوبة النصوح تمسح المعاصي من كتابه كيلا تحول دون وصوله إلى معبوده، وهذا من أعظم ألطاف الله على عباده.

ثم أخذ الله يصف حال الأبرار السعداء ومنزلتهم العالية؛ حيث يقول: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

الدرجات تختلف بين العباد فإنها تتمايز بميزان قدر القرب والبعد من ساحته، فدرجة الأبرار لا ينالها إلّا الأنبياء المرسلون والأولياء الصالحون ، ومن سار في طريقهم، ومن نوّر جوارحه بأنوار التزكية ،وأبعدها عن ظلمات المعصية، فكتابهم مرقوم بصالح أعمالهم ومختوم بعبرات أعينهم خشية الله وطلبًا لمرضاته، فجزاهم الله جزاء جزيلا لا يدركه إلّا الراسخون في العلم.

"﴿إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ أي: ما كتب من صور أعمال السعداء ، وهيئات

(١) انظر مجمع البيان في تفسير القرآن ، ١٠ / ٦٩٠.

نفوسهم النورانية ، وملكاتهم الفاضلة في عليين وهو مقابل للسجين في علوه وارتفاع درجته ، وكونه ديوان أعمال أهل الخير، كما قال: ﴿كِتابٌ مَرْقُومٌ﴾ أي: محل شريف رقم بصور أعمالهم من جرم سماوي ، أو عنصري إنساني ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يحضر ذلك المحل أهل اللهّ الخاصة من أهل التوحيد الذاتي"[1] ، فهؤلاء المقرّبون هم في درجة الأبرار؛ لذلك جعلهم شاهدين على كتابهم لكونهم يتمتعون بصفة القرب، يستمدّون من قربهم إلى الله أنواره الملكوتية، فأصبحوا بجواره منعّمين فرحين.

﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ أي هم متمكنون في أعلى درجات الجنان وأرفع غرفها ، ثم أبهمه سبحانه تعظيما وتفخيما، فقال:﴿ وَما أَدْراكَ﴾ أيها البار المبرور ﴿ما عِلِّيُّونَ﴾ وما شأنه الرفيع ومكانه البديع وما فيه من اللذات الروحانية التي من لم يذقها لم يعرفها ، رزقنا اللهّ الوصول إليها والحصول دونها وبالجملةكِتابٌ للأبرار ﴿ كِتابٌ مَرْقُومٌ﴾ بين الرقوم و الرسوم بحيث ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي أرباب العناية والتوفيق ، فيعلمون من عنوانه أنّ ما فيه خير كله بمجرد رؤيتهم وشهودهم في بادي النظر[2].

ويبدو أنّه قد نظر الله إلى عباده الصالحين؛ حيث إنهم نظروا إليه في الدنيا بقلوبهم الصافية، فكافأهم بأحسن مما فعلوا، فعنايته الشمولية أحاطت بهم ، وجعلتهم يتحسّسون تلك النظرة الغيبية بكل جوارحهم ويتلذّذون منها؛ لأنّها نظرة الحبيب الشيّقة إلى حبيبه عينها ، فتثير فيه الأشواق الحارة التي تمازج روحه فتتركه في خلسات روحانية، وليس من بعدها لذة روحية تماثلها أثرًا ودوامًا منها.

لمسات عرفانية في تفسير سورة البروج

قال الله سبحانه في سورة البروج يصف ثبات المؤمنين وإيمانهم بالله العزيز الذي له ما في السماوات والأرض، ويعلم كل ما يحدث من صغيرة وكبيرة ، إذ يقول: ﴿وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ

(١) تفسير ابن العربي ، ٢ / ٤١٥.
(٢)الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية ، ٢ / ٤٩٣.

شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾.

تفضي صفة الثبات في سبيل الله ، وتحمل الأذى والمكروه من قبل أعدائه إلى علوّ المراتب ونيل رضوانه ؛ وذلك بسبب العلقة النفسية التي يستشعرها المؤمن بالنسبة إلى معبوده فيرى كل أمر عصيب في سبيل وصوله سهلًا، وكل مرّ شديد في وصاله وكسب رضاه حلوًا شهيًّا، فلا يمنعه إلحاح الملحّين ، ولا تهديد الملحدين طرفة عين عن محبوبه ومعبوده، فيزيده إصرارهم في ابتعاد المؤمن عنه جل وعلا إصرارًا على الثبات في عقيدته ، واشتياقًا إلى لقائه عاجلا، فقوله: "وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ أي وما عابوا وما أنكروا عليهم إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا وإنّما اختير بناء الاستقبال رمزًا إلى أنهم كانوا يطلبون منهم ترك الإيمان في المستقبل ولم يعذبوهم على الإيمان في الماضي ، أي عذبوهم على ثباتهم وصبرهم على إيمانهم بمن يستحق أن يؤمنوا به؛ لكونه إلهًا قادرًا لا يغالب بليغًا في الكمال بحيث يستحق الحمد كله مالكا لجميع المخلوقات، وفيه إشارة إلى أنّه لو شاء لمنعهم عن ذلك التعذيب لكنه أخرّهم إلى يوم الجزاء، ودلّ عليه بقوله: ﴿وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ثم عم الوعيد والفتنة البلاء والإيذاء والإحراق في آيتين أخريين "[1].

إذا علم المؤمن الحقيقي أنّ الله القادر المتعال يفعل ما يشاء، له ملك السماوات والأرض فعندئذ تصغر في عينه كل المملوكات الاعتبارية؛ لعلمه بمالكها الحقيقي، ويجابه كل جبّار عنيد يريد أن يضعّف إيمانه بقوته القهرية؛ لأنّ صفة القهر الحقيقية لله وحده، وإنما تنسب لغيره مجازًا واعتبارًا، فالمؤمن يبدي عن قبوله في كل نائبة تنال منه بسبب إيمانه بالله ؛ لعلمه بالجزاء الجزيل إزاء ما يعاني منها، فالمعبود يحلو في وصاله الأذى، ويهون دونه كلّ المصائب والمشاكل.

يقول السيد قطب: "فهذه جريمتهم أنّهم آمنوا باللهّ، العزيز، القادر على ما يريد، الحميد، المستحق للحمد في كل حال، و المحمود بذاته ولو لم يحمده الجهال! وهو الحقيق بالإيمان وبالعبودية له ، وهو وحده الذي له ملك السماوات والأرض وهو يشهد كل شيء وتتعلق

(١) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، ٦ / ٤٧٧.

به إرادته تعلّق الحضور[1].

فمن يريد قرب الله عليه أن يصبر عندما يبتلى بعداء الملحدين، ويثبّت أقدامه ابتغاء رضوانه فإنّ الله لا يضيّع أجر الصابرين فوعدهم بأجره وقربه، ولا رتبة أعلى من جواره سبحانه، وما ذلك إلّا لعظم حبّ الله لهم، وأيضًا حبّهم له.

لمسات عرفانية في تفسير سورة الطارق

وقال الله في سورة الطارق يذكر كيد المشركين ومكرهم، وسعة حلمه للكافرين الذين ينسجون الحيل المختلفة للنيل من الإسلام والقرآن الكريم؛ حيث يقول: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴿١٧﴾﴾.

فما جواب المكيدة والغدر إلّا المكيدة والغدر، ردعًا للباطل وبقاءً للحق، ورفعةً للدين ودحضًا للكفر والنفاق، فالكيد من قبل المشركين والكفار بمثابة جهد العاجز؛ لأنّه لا تقوم لهم حجة أمام الحقّ ومن هذا المنطلق يسعى وراء تمويه الحقائق والإضرار بها بوسائل شيطانية، فقال بعض المفسّرين المراد من "قوله تعالى: ﴿وَأَكِيدُ كَيْداً﴾، قال: كيده بهم في الدنيا الاستدراج والاغترار، وبالآخرة الحسرة عند نظرهم إلى إكرام الموحدين وإعزازهم، واللهّ سبحانه وتعالى أعلم"[2].

ولكن الأولى أن نقول أنّ كيد الله سبحانه يصدر كقوة ردعية تتصف بالخير وإنما ذكرت من باب المشاكلة، وليس كيده على أسس باطلة كما هي عند الماكرين المخادعين بل بطريقة القضاء على مكائدهم دون أن يفطنوا بما يريد الله فعله – تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا-.

"فالضمير في "إنّهم" راجع إلى مشركي مكّة؛ لأنّ السورة مكيّة، أي: يعملون المكايد والحيل في إبطال القرآن وإطفاء نور اللهّ- ويأبى اللهّ إلّا أن يتمّ نوره- فيكايدهم ويقابلهم بكيده، أي: يدّبر ما ينقض تدابيرهم ويهدم مكائدهم ، وسمّي ذلك كيدًا من حيث خفائه عليهم أولا، وظهوره أخيرا على نحو الاستدراج ونحوه ، ولا يبعد أن يراد بالكائدين

(١) في ظلال القرآن، ٦ / ٣٨٧٤.
(٢)تفسير التستري، ١ / ١٩١.

القوى النفسانيّة وخاصّة الوهميّة المكّارة المنازعة للقوة القدسيّة في طريق الحقّ، فإنّها وإن كانت منازعة إيّاها إلّا أنّ الله بإفاضته نور الهدى على قلب عبده المؤمن ، وإعطائه له البرهان النيّر القدسي التأييد التامّ الحدسي يغلبها على قواها كلّها يظهرها عليها ويخلصها من كيد القوى- سيّما الوهم الذي هو خليفة الشيطان في عالم الإنسان- ، ويجذبها إلى عالم القدس بإبطال كيد جنود الشيطان ، وجعلها مسخّرة خادمة للقوّة القدسيّة، مطيعة منقادة مشايعة معها إلى جنب الحقّ، مسلّمة مسالمة، بعد ما كانت أنفة منازعة متأبّية عن طاعة الحقّ كافرة جاحدة"[1].

ويظهر التحليل العرفاني واضحا في قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾، حيث إنّ الكافرين على رغم كل محاولاتهم الفاشلة ومكائدهم المضلّلة ؛ لأجل النيل من الإسلام ، والقضاء على صوته المجلجل بالحقّ، فالله سبحانه أمهلهم استدراجًا إمّا ليزدادوا إثمًا على آثامهم السابقة ، وإمّا لينتبهوا من غفلتهم ويؤوبوا إلى بارئهم مستغفرين منيبين إليه ساعين إلى استدراك ما فاتهم، وما ذلك إلّا رحمة منه تعالى لعباده كافّة حتى الكافرين الطغاة، فإنّ الله سبحانه يتيح لهم الفرصة لربما يتذكّرون عظمة الخالق وربوبيته، ويتراجعون عن ظلم أنفسهم أولا؛ بسبب ابتعادهم عن ساحة ملكوته وذلك ما يفضي إلى عذابهم في الآخرة، وثانيا : يؤدون حق عبادته ومعرفته؛ لأنّه أهل لذلك، فيجب أداء الحق بحكم الملازمة العقلية.

لمسات عرفانية في تفسير سورة الأعلى

قال الله سبحانه في سورة الأعلى يأمر نبيّه الكريم بتسبيحه وتنزيهه هو الذي علا بطوله وشأنه وأحسن كل شيء خلقه وصنعه؛ حيث يقول: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدى ۝٣﴾.

فالرب الذي يخلق الخلائق من الكائنات الحية المختلفة ، وعلى رأسها البشر الذين خلقهم في أحسن تقويم وقدّر لهم الأعمار والأرزاق وهداهم إلى نفسه ، وإلى ما يكون

(١) تفسير القرآن الكريم(صدرا)، ٧/ ٤٥٤-٤٥٥.

صالحًا لحياتهم فمن الجدير تسبيحه طول المدى بل يجب شكر المنعم عقلًا ؛ وذلك لأنّ الله أولاهم النعم الجليلة، فقوله: "سبّح ربّك بمعرفة أسمائه"، واسبح بسرّك في بحار علائه، واستخرج من جواهر علوّه وسنائه ما ترصّع به عقد مدحه وثنائه.

﴿والَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ خلق كلّ ذى روح فسوّى أجزاءه، و ركّب أعضاءه على ما خصّه به من النظم العجيب والتركيب البديع. ﴿وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدى﴾ أي قدّر ما خلقه، فجعله على مقدار ما أراده، وهدى كلّ حيوان إلى ما فيه رشده من المنافع، فيأخذ ما يصلحه ويترك ما يضره- بحكم الإلهام.

ويقال: هدى قلوب الغافلين إلى طلب الدنيا فعمروها، وهدى قلوب العابدين إلى طلب العقبى فآثروها، وهدى قلوب الزاهدين إلى فناء الدنيا فرفضوها، وهدى قلوب العلماء إلى النظر في آياته والاستدلال بمصنوعاته فعرفوا تلك الآيات ولازموها، وهدى قلوب المريدين إلى عزّ وصفه فآثروه، واستفرغوا جهدهم فطلبوه، وهدى العارفين إلى قدس نعته فراقبوه ثم شاهدوه، وهدى الموحّدين إلى علاء سلطانه في توحد كبريائه فتركوا ما سواه وهجروه، وخرجوا عن كلّ مألوف لهم ومعهود حتى قصدوه ، فلمّا ارتقوا عن حدّ البرهان ثم عن حدّ البيان ثم عمّا كالعيان علموا أنّه عزيز، وأنّه وراء كلّ فصل ووصل، فرجعوا إلى موطن العجز فتوسّدوه[1].

فتسبيح المعبود فيه المتعة الروحية للعبد ، وبمقتضاها تتجلى المعارف الربانية ، وتتلاشى الوساوس الشيطانية فتتربّى النفس وتتجه اتجاها صحيحا؛ لأنّ ذكر الرب وتسبيحه بمنزلة المفتاح لفتح أبواب العلاقة الروحية بين العبد ومعبوده، ولما أراد المعبود أن يخلو بمحمدﷺ علّمه كيفية التقرب إليه ، فأمره بالتسبيح كأداة تواصلية تعقد الارتباط الروحي بينهما على نحو أتم وأكمل؛ لأن ذبذبات التسبيح منشؤها كلام الله، وكلام الله فيه من الآثار ما لا يدركها العقل، ومن هذا المنطلق يتضح الوجه العرفاني للآية الكريمة؛ حيث إنّ الله دعا رسوله الأمين إلى تسبيحه ومناجاته ؛ كي لا تمنعه الأمور الدنيوية من مواصلة تلك

(١) لطائف الإشارت ، ٣/ ٧١٧-٧١٨.

العلاقة الروحية بين العبد ومعبوده، فأمره بأن يقضي قطعًا من الليل بمناجاته وتسبيحه حبًّا له وشوقًا إلى محاكاته، فالله يحبّ عبده المخلص ، ويستدعيه في آناء الليل وأطراف النهار إلى مأدبته الروحية يَستأنس ويُستأنس به، وهكذا هي أحوال الذاكرين كما وصفهم الله في كثير من الآيات.

إلى قوله تعالى حيث يقول: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى ﴿١٧﴾﴾.

حيث إنّه تعالى نبّههم على زينة الدنيا الخادعة؛ إذ إنّها بزخارفها وزبرجها تغري النفوس الضعيفة وتذهب بهم إلى ما تشاء، فتحبّب إليهم كل سوء، وتحثّهم على اتّباعها والركون إليها، فيؤثرونها على الحياة الباقية خطأً وسهوًا،ومن هذا المسار يذكرهم الله تذكيرًا فيه مسحة من الإعجاز الجدلي من خلال قياس بسيط، وهو إذا كانت الدنيا فيها من المتع ما تستقطب النفوس إليها إلّا أنّها فانية، والحال أنّ حياة الآخرة لا نهاية لها وفيها من الملذات والمتع ما لا تعدّ وتحصى.

وعليه "فقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيا﴾ إضراب بالخطاب لعامة الناس على ما يدعو إليه طبعهم البشري من التعلق التام بالدنيا والاشتغال بتعميرها، والإيثار الاختيار، وقيل: الخطاب للكفار، والكلام على أي حال مسوق للعتاب والالتفات لتأكيده.

قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ عدّ الآخرة أبقى بالنسبة إلى الدنيا مع أنّها باقية أبدية في نفسها؛ لأنّ المقام مقام الترجيح بين الدنيا والآخرة ، ويكفي في الترجيح مجرد كون الآخرة خيرا وأبقى بالنسبة إلى الدنيا وإن قطع النظر عن كونها باقية أبدية[1].

ويبدو التحليل العرفاني جليًّا حيث إنّ الله لم يترك عباده يتيهون في بوادي الضلال، دون دليل يهديهم إلى سواء السبيل حتى يتحجّجوا عليه بأنهم كانوا غافلين ، وقد انخدعوا بمطامع الدنيا ومفاتنها، فإنه جلّ وعلا بشتى الوسائل يريد هداية عباده ولا يترك لهم ذريعة يحتجون بها عليه، وكما أشرنا سابقًا إنّ الله لا يحب أن تتقطّع أسباب الاتصال بينه وبين عبده، فيمهّد له الأرضية للأوبة إليه، ولو بالتذكير ولو بالقياس؛ لأنّ البراهين على ربوبيته

(١) الميزان في تفسير القرآن ، ٢٠ / ٢٧٠.

ساطعة ، والأدلة على عظمته وجبروته لامعة، ويكفي الإنسان الإصغاء إلى حديث فطرته ومشاعره النابعة من صافي ضميره.

لمسات عرفانية في تفسير سورة الغاشية

قال الله سبحانه يدعو الناس إلى التأمل في عجائب خلقه، وقد ذكر نماذج منها : كالإبل، والسماء ، والجبال ، والأرض؛ ليسرّح فكره في مسافات بعيدة من الإبداع والإحكام فيها، والدقة في صنعها وخلقها حتى تستشعر النفس عظمة خالقها، وتعود إلى فطرتها التي فطر الناس عليها ، حيث يقول: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

"لمّا وصف اللهّ تعالى الجنّة و ما فيها كان ينبغي ان تشتاق النّفوس إليها ، ويسأل عمّا دلّ عليها وعلى بقاء النّفوس فيها، فقال تعالى جوابا عن هذا السّؤال: ينبغي أن ينظروا الى الإبل.."[1].

وعليه فالله جلّ وعلا على رغم وضوح الأمر والحجة إلّا أنّه يشجّع رسوله الكريم على الاستمرار في تذكير الناس بآلاء الرحمان ووجود السّبحان، وإيقاظهم من الغفلة، وإزالة الغشاوة عن أبصارهم التي تعوّدت على النظر إلى زيف الدنيا ، حتى صعب عليها أن تنظر إلى صورتها الحقيقية الصارخة بالخداع والمكيدة، ومن هذا المسار يمكن القول: إنّ الله يريد بالإبلاغ إتمام الحجة عليهم أولًا ، وثانيًا فتحَ مجال أرحب للتفكر والتأمل لكي ينتبهوا إلى خسرانهم في ابتعادهم عن خالقهم الذي أنعم عليهم بنعم عظمى لو فكّروا فيها لانتهجوا منهج الهدى، والمراد من"قوله تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي لست أيها النبي بمتسلط على الناس، تقهرهم بسلطان قوى، وبقوة قاهرة، على أن يؤمنوا باللهّ، يستجيبوا لما تدعوهم إليه .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ﴾ (ق:٤٥)، وفي هذا إطلاق للإنسان، وتحرير لذاته وشخصيته

(١) انظر تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة ، ٤ / ٢٥١.

من أي سلطان، إلّا سلطان عقله وضميره، وفي هذا تكريم للإنسان، واعتراف بمكانه في الوجود، وأنّه لا وصاية عليه من أحد حتى الأنبياء والرسل.. إنّهم ليسوا أوصياء عليه، وإنما هم هداة يرفعون لعينيه مشاعل الهدى في طريق حياته، فإن شاء سار في الطريق الذي يكشف عنه هذا النور، وإن شاء أخذ الطريق الذي اختاره له عقله، وارتضاه ضميره .. ولو كان كفرا وضلالا، فتلك مشيئته التي شاءها لنفسه[1].

فلو علم الإنسان قدر نفسه لما اتّخذ إلهه هواه بل اختار من هو صاحب نفسه وهواه، وجرّد نفسه عن كل الرذائل التي تجعله أن يضيّع طريقه اللّاحب، فلا معبود يستحق الانصياع إليه سواه، والإنسان بطبيعته يحبّ الخنوع إلى من بيده مقادير الناس وأرزاقهم، صلاحهم وشقاؤهم؛ ولذلك كثير من الأمم الضالّة عندها الآلهة المتعددة من التماثيل والأصنام المنحوتة من الحجر والخشب وما إلى ذلك؛ لكي يتقربوا إليها في قضاء حوائجهم، وكشف الهموم والأحزان عن قلوبهم، فالإنسان يحتاج إلى من هو أعلى منه منزلة وأقدر منه حولًا وقوّة لضعفه واستكانته، ومن هنا يفهم مغزى التذكير في الخطابات القرآنية، فالله سبحانه عنده العلم بأحوال الناس ونواياهم ودواعيهم التي تحدوهم إلى التقرب من هذه الآلهة التي لا تحرك ساكنًا، فأراد أن يوقظ ضميرهم ويدلهم على المعبود الحق عن طريق بعض آثاره ، وعجائب خلقه ؛ ليتأملوا بأنّ الآلهة لا تتمكن من صنع أبسط الأشياء فكيف تستطيع خلق السماوات والأرض والجبال وغيرها من المخلوقات.

لمسات عرفانية في تفسير سورة الفجر

وقال الله سبحانه يذكر حال الإنسان الذي تزعزعه البلايا التي يبتليه بها ، وتفرحه العطايا الإلهية التي يكرمه بها حيث يقول:

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ ﴿١٦﴾﴾.

لا يعلم الإنسان ما هو مصيره بعد الرزق الكثير، ولا ما يؤول إليه مصيره بعد الفقر

(١)التفسير القرآني للقرآن ، ١٦ / ١٥٤٣.

العسير، فالملاك عند الله حسب قوله في الآيتين هو الثبات عند الشدائد التي يبتلى بها ، وعدم تزلزله بهواجس النفس ووسواس الشيطان، وأيضا الشكر على إنعامه إذا ما أكرمه كيلا تبطره النعمة عن ذكر ربه ولا تسقطه إلى مهاوي الشهوات ، حيث إنّ "الإنسان المذبذب بين الإحسان والكفران إِذا مَا ابْتلاهُ اختبره ، وجرّبه ربّه بالغنى واليسر فأَكرمَه بالجاه والثروة ونعَّمه بالأموال والأولاد، فَيقولُ: شكرًا لما وصل إليه من النعم ومقتضيات الكرم رَبِّي أَكْرَمَنِ، وتفضل عليّ بما أعطاني من الخير والحسنى وَأَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ ربه بالفقر و العسر فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ وقصر على قدر كفايته وحاجته وقوت يومه بحيث لم يزد على مؤنة معاشه فَيَقُولُ: مشتكيًا إلى اللهّ باثًّا شكواه عنده سبحانه رَبِّي أَهانَنِ وأذلني حيث لم يعط لي ما أعطى وأنعم لفلان وفلان تفضلا وإحسانا مع أن الفقر خير له من الغنى؛ إذ الفقر لو اقترن بالتسليم والرضا لأدّى صاحبه إلى جنة المأوى وملك لا يبلى والغناء لو لم يقترن بالشكر والإنفاق و الإحسان لأدى صاحبه إلى دركات الجحيم وأودية النيران"[1].

والتحليل العرفاني يتضح عبر مفهوم الآيتين الشريفتين بعد إمعان النظر في منطوقهما، فالمراد هو أنّ الله يبتلي عباده في كلا الحالتين اليسر والعسر، فيمتحن كل واحد منهم على وفق مقتضياته وطبائعه ليتميّز الصالح من الطالح، فالصالح لا تختلف حاله إن استغنى ، أو افتقر فهو يشكر الله في كل حال ؛ لعلمه بالاختبار الإلهي فلا يعروه الخور والضعف في إيمانه بل يزداد تجلّدًا وتصبّرًا ، فيما ابتلي به طلبًا للأجر والثواب، وأمّا الطالح لا تستقرّ حاله يتلوّن حسب الحالات التي تعتري نفسه فيؤمن ببعضها ويكفر ببعضها، فيتجه نحو الله إذا ما أصاب خيرا فيعزيه إليه ويعدّه كرامة من جانبه، ويعدل عنه إذا ما أصيب بشرّ وعدّه إهانة وخذلانًا منه، فهو المذبذب الذي يقدّم رجلا في سبيله ويؤخّر أخرى، ومن هذا المنطلق يدعو الله عباده إلى نفسه ويستهديهم إلى طريقه قائلا لهم: بأنّي لا أفرّق بينكم فلم أكرم أحدا، أو أجعله معوزا إلّا ابتلاءً و امتحانًا، فليس الأمر كما يتصوّره الجهلة من الناس، بل كل البرايا سواسية عند الله، ويوفّي أجر كلّ منهما على حسب مقدار قربه من الله بالعمل

(١) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية ، ٢ / ٥٠٨.

الصالح ، ومدى العلاقة الروحية بينهما سواء كان غنيًّا بعطاء الله أو فقيرًا.

ثم يخاطب النفس المتحلية بدرجات القرب من الله قائلا: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً ۝٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾

لما كانت النفس فارغة من أمر الدنيا متّجهة إلى الله ، راضية بقضائه مولعة بلقائه متقربة إلى جنابه ، كان رجوعها إلى ربها بنفس الحالة التي كانت متمتعة بها في الدنيا من الاطمئنان والسكينة ؛ حيث إنّهم أخذوا بقوله تعالى ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ فلازمت ذكره حتى استقرت لدى رضوانه، وعليه قول التستري: "فهذا خطاب لنفس الروح الذي به حياة نفس الطبع والمطمئنة المصدقة بثواب اللهّ وعقابه ، وارْجِعِي إِلى رَبِّكِ بطريق الآخرة راضِيَةً عن اللهّ باللهّ مَرْضِيَّةً عنها ؛ لسكونها إلى اللهّ عزّ وجلّ، فَادْخُلِي فِي عِبادِي أي في جملة أوليائي الذين هم عبادي حقا ، وَادْخُلِي جَنَّتِي، قال سهل: الجنة جنتان: أحدهما الجنة نفسها، والأخرى حياة بحياة وبقاء ببقاء.

كما روي في الخبر: يقول الملائكة للمنفردين يوم القيامة: امضوا إلى منازلكم في الجنة، فيقولون: ما الجنة عندنا، وإنما انفردنا لمعنى منه إلينا، لا نريد سواه حياة طيبة واللهّ سبحانه وتعالى أعلم"[1].

هذه الآيات تفيض بينابيع العرفان المتدفقة، وتمثّل أروع الخطابات الربانية لعباده المقبلين إليه، فأنفاسهم كانت في الدنيا عاطرة بذكره، ونفوسهم عالقة بحبال وصاله، وقد اطمأنّت بمناجاته، وكمال الاتصال به، إلى أنْ دعاها الله إلى نفسه فكان قبض روحها بمنزلة تحية مستضيف مشتاق تلازمها الحرارة والحفاوة، فتُقبل النفس إليه راضية مرضية كما أقبلت إليه في الدنيا فيرضيها الله بجزائه الجزيل، ذلك هو قربه منها في دار الخلود، وتجدر الإشارة إلى لطافة قوله تعالى: "إلى ربك" فضمير الخطاب دالّ على شدّة التلاحم والارتباط الروحي بين العبد ومعبوده بشكل يثير انتباه المتلقّي؛ لأن الله خاطب النفس خطاب المشتاق إليها كما يشتاق الإنسان إلى محبوبه، وذلك ما ينبيء عنه سياق النصّ القرآني.

(١) تفسير التستري ، ١ / ١٩٤.

لمسات عرفانية في تفسير سورة الشمس

قال الله في سورة الشمس يذكر خلق النفس ، وما يعتريها من فجور وتقوى، وفلاح من نزّهها وطهرها من الذنوب، وخسران من لوّثها بمعصية الله ؛ حيث يقول: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها ۝٧ فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها ۝٩ وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها ۝١٠﴾.

بيّن الله جل وعلا في آيات عديدة طرق الهداية وطرق الضلالة، وأودع في نفوسهم إدراك الخير والشرّ، فإنّ الحسن والقبح فيهما ذاتيّان، وذلك ما لم يختلف فيه اثنان، وقد فصّل مآلهما ، وختم الحجة على الناس جميعًا ، فالمراد من قوله : ﴿وَ نَفْسٍ وما سَوَّاها﴾ أي- "سوّى" خلقها وتركيبها ، وقيل: أراد به آدم ﷺ، وقيل: هو عامّ أراد جميع الإنس والجنّ. ﴿فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ أي- بيّن لها الخير و الشّر ، وعلّمها الطّاعة و المعصية.

قال الزجاج: معنى الإلهام التّوفيق والخذلان أي: وفّقها للإيمان والطّاعة وخذلها بالكفر والمعصية ، وهذا بيّن أنّ اللهَّ عزّوجلّ خلق في المؤمن التّقوى وفي الكافر الفجور، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها هذا جواب القسم تأويله: لقد "أفلح" لمّا طال الكلام جعل طول الكلام عوضا من اللام فحذفت والمعنى: فازت وسعدت نفس "زَكَّاها" اللهَّ أي: أصلحها وطهّرها من الذّنوب ووفّقها للطّاعة.

﴿وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾ أي: خابت و خسرت نفس أضلّها اللهَّ وخيّبها من كلّ خير، وقال الحسن: معناه قد أفلح من ذكى نفسه فاصلحها وحملها على طاعة اللهَّ عزّ وجلّ ، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها أي: خسر من "دسّى" نفسه بمعصية اللهَّ، أي أخفاها، فكان العاصي بركوبه المعصية أبدًا يخفي نفسه ويخمل ذكره، واللّئيم أبدا خفيّ المكان والشّريف مشهور المكان ، و"دَسَّاها" أصله "دسّاها" من التّدسيس وهو إخفاء الشّيء فأبدل من سين الثّانية ياء تخفيفًا وكراهية للتّضعيف"[1].

والتحليل العرفاني يظهر في المعاني الثانوية المتجلية في ثنايا النص القرآني، فلما بيّن الله للنفس خيرها وشرّها أخذ يشرع في ذكر مآل من نزّهها ومن لوّثها، وما ذلك إلّا توعية

(١) انظر كشف الأسرار وعدة الأبرار ، ١٠ / ٥٠٦-٥٠٧.

وإرشاد لها؛ لأنّ الإنسان إذا علم شرّ الأعمال، وخيرها علم أيضًا بما سيكون مصيره إذا اتّخذ أحدهما دأبًا في سلوك حياته، طبعا فلا ضرورة لإرداف الآية بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها﴾ لوضوح الأمر وانجلائه، حيث إنّ فاعل الخيرات يعلم بفلاحه في العقبى، كما أنّ مرتكب السيئات يعلم بخسرانه وسوء عاقبته عقلًا، إذن ما هو سبب ذكر عاقبة الفريقين الهادي والمضلّ بعدما علما بمصيرهما عقلا؟، السبب على الأرجح كما هو متبادر إلى الذهن هو تشجيع البشر إلى الفلاح حبًّا لهم وشفقة عليهم، فالمعبود لا يريد عذاب عبده فيحاول بهذا الأسلوب التفصيلي التأكيد لهم، وأيضا ابعادهم عن السوء؛ إذ لولا اعتبار هذا المعنى العرفاني اللطيف لما كان في تفصيل مآلهما قيمة تعبيرية والله أعلم.

لمسات عرفانية في تفسير سورة الليل

وقال الله سبحانه يصف الإنسان الكامل الذي يتقي الله متجنّبا معاصيه، معطيا من أمواله في سبيله تزكية وتطهيرا، وما لأحد من الخلق منّة يرجو أن يجازى عليها حتى ينوي بإزاء ما ينفق من ماله مكافأتها، فلا يريد بذلك إلّا قربة إلى الله العليّ، ولسوف يجازيه على فعله الكريم الجزاء الجزيل ما يجعله راضيا، وذلك حيث يقول: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى ﴿١٩﴾ إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضى ﴿٢١﴾﴾.

فلا يخفى على أحد أنّ التقيّ هو الذي يبتعد عن المعصية والكفران خشية الله، واعتادت نفسه على ذلك بترويضها وتذكيرها وتأنيبها، وإنّ التقوى درجة عليا ينالها قليل من العباد، بها يضمن للعبد الابتعاد عن العصيان واقتحام الهلكات، وعليه يمكن القول: إنّ "السلامة من هذا البلاء، والنجاة من ذلك العذاب، إنّما هي لمن اتقى اللهّ، وخاف عذابه، وأنفق المال طالبا زكاة نفسه وتطهيرها، مبتغيا بذلك وجه ربه الأعلى، المالك كلّ شيء، القائم على كل شيء، لا يريد بما أنفق جزاء ولا شكورا من أحد من عباد اللهّ .. فمن فعل ذلك ابتغاء وجه اللهّ، أرضاه للهّ وأقرّ عينه بما عمل .. إنّه أرضى ربه، فكان حقّا على اللهّ أن يرضيه و في لفظ "الأشقى" و"الأتقى" ما يفيد المبالغة في كل من الشّقوة والتقوى، وفي هذا ما يدعو الشقي

إلى التخفف مما يزيد في شقوته، حتى لا يزداد بذلك عذابه، كما يدعو التقيّ أن يزداد في تقواه ما استطاع، حتى يزداد بذلك بعدًا من النار، وقربا من الجنة .."[1].

فالعبد المؤمن لاعتقاده الراسخ بمعبوده، ولعلمه التفصيلي بمكافأته على نحو الأتمّ في القيامة يقدّم كل ما لديه لوجه الله مخلصًا فيما يفعله، فلشدة حبّه له عزّ وجل ، أو خوفًا من عذابه يتجنّب المعاصي ويبذل من ماله تزكية له ولنفسه وابتغاء لمرضاته، وذلك ما يفضي إلى صفاء الألفة ، والاطمئنان الروحي ، والاستقرار النفسي في علاقة العبد بمعبوده؛ حيث إنّ مجاهدة النفس في توطيدها تمثل قمة الحب الإلهي؛ لأنّ النفس قد تجرّدت من الطمع في مال الدنيا فصفا حالُها ورقّ شعورها، فكلما ازداد العبد قربًا من معبوده بالتضحية وأداء الواجب وتجنب المعصية، ازداد المعبود شوقا إليه، وأرضاه بجنة الخلد جزاءً ونصيبا كما أرضاه العبد بما فعل في الدنيا ابتغاء وجهه خالصًا لا يكدّره رنق الرياء والسمعة.

لمسات عرفانية في تفسيرسورة الشرح

قال الله سبحانه يؤمّل عباده باليسر بعد العسر حاثًّا نبيّه بعبادته بعد الفراغ من أعماله وحوائجه اليومية؛ ليقضي بعض الوقت في مناجاته والتقرب إليه ، حيث يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ۝٦ فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝٨﴾

فالآيتان الخامسة والسادسة بشارةٌ من الله العزيز القدير لعباده الصابرين، فإنه يراهم كيف يعانون مضض الدواهي، وهم ينظرون إليه نظرة استعطاف لدفعها والقضاء عليها إذ لا معين سواه، فأراد جلّ وعلا بهاتين الآيتين أنْ يبثّ روح الأمل في قلوب أحبّائه ، والصابرين على نهجه وعلى رأسهم النبيّ محمد ﷺ ، وعليه قد قال الطبرسي: "وعد سبحانه اليسر والرخاء بعد الشدة وذلك أنّه كان بمكة في شدة قال: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ أي مع الفقر سعة عن الكلبي، وقيل: معناه أنّ مع الشدة التي أنت فيها من مزاولة المشركين يسرا ورخاء بأنّ يظهرك الله عليهم حتى ينقادوا للحق الذي جئتهم به طوعًا ، أو كرهًا ثم كرّر ذلك فقال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ ، روى عطاء عن ابن عباس، قال: يقول الله تعالى خلقت

(١) التفسير القرآني للقرآن ، ١٦ / ١٥٩٧.

عسرا واحدا ، وخلقت يسرين فلن يغلب عسر يسرين.

و﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ وتأويله لا يحزنك ما يقولون ، وما أنت فيه من الإقلال فإنّ مع العسر يسرا في الدنيا عاجلا ، ثم أنجز ما وعده فلم يمت حتى فتح عليه الحجاز، وما والاها من القرى العربية عامة بلاد اليمن ، فكان يعطي المائتين من الإبل ويهب الهبات السنية ويعدّ لأهله قوت سنته ثم ابتدأ فصلا آخر، فقال ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ ، والدليل على ابتدائه تعريه من فاء وواو وهو وعد لجميع المؤمنين؛ لأنّه يعني بذلك أنّ مع العسر في الدنيا للمؤمن يسرا في الآخرة ، وربما اجتمع له اليسران يسر الدنيا وهو ما ذكر في الآية الأولى ، ويسر الآخرة وهو ما ذكر في الآية الثانية"[1].

ولكن الظاهر من الآية الثانية إنّها ذكرت للتأكيد اللفظي بمعنى أنّ أمر اليسر بعد الشدة والمحنة متحقّق لا محالة، ووعد منجز من قبل الله، فعلى المؤمن أن يكون واثقًا به متطلّعًا إليه، ويروّض نفسه على الاعتماد على الله في ما تنوبه من المخاطر والمتاعب لكي ييسّر له ما يريد، ويسأل المولى أن يكشف الضر والبلوى عنه، فإنّ الدعاء يعجّل أمر اليسر ويفتّح أبوابه من حيث لا يحتسب.

﴿فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَ إِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ .. فخذ في أسباب اليسر والتيسير ، فإذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض، و مع شواغل الحياة .. إذا فرغت من هذا كله فتوجه بقلبك كله، إذن إلى ما يستحق أن تنصب فيه وتكد وتجهد ..العبادة والتجرد والتطلع والتوجه .. ﴿ وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ .. إلى ربك وحده خاليا من كلّ شيء حتى من أمر الناس الذين تشتغل بدعوتهم .. إنّه لا بدّ من الزاد للطريق ، وهنا الزاد ، ولابدّ من العدة للجهاد وهنا العدة[2].

يتمثّل العرفان حقيقته في الآيتين الأخيرتين السابعة والثامنة ، حيث يدعو الله رسوله صلوات الله عليه على وجه الخصوص وكل البرايا على وجه العموم أن يخلوا به بعض الوقت

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ، ١٠ / ٧٧١-٧٧٢.
(٢) في ظلال القرآن ، ٦ / ٣٨٧٤.

بعد الانقطاع عن الأمور الدنيوية ؛ ليتزوّدوا من الله زادًا لعقباهم، وتتسامى أرواحهم عن متعلّقات الدنيا، وتحلّق في سبحات ملكوته الأعلى، وتستلهم الحقائق الربانية من تلك الأجواء القدسية، وذلك لما كانت النفس منشغلة بالدنيا منقطعة عن الأخرى في معظم الوقت انجرّ الأمر إلى الغفلة والابتعاد عن ذكر الله وعلى إثره العلقة بالمادة المانعة عن انعتاق الروح في الفضاء الروحي ؛ فلذلك يرشد الله العباد إلى نفسه بعبادته للحدّ من علقة الدنيا لكي لا تأسر زخارفها قلوبهم ، وتسخرها لأمورها المادية التي تحول دون وصول النفس إلى خالقها، فالإنسان قد خلق لأجل الكمال ومعرفة معبوده، فأمثال هذه الآيات بمنزلة برمجة تربوية للنفس البشرية التي تحتاج إليها طول حياتها بغية البلوغ إلى السعادة الأبدية.

لمسات عرفانية في تفسير سورة التين

قال الله سبحانه في سورة التين يصف حال الإنسان عندما أبدع خلقه، وأودع فيه القوى العجيبة حتى يتمكّن بها أن يرقى إلى المراتب العالية، وقد يوظّفها في الطرق السلبية فتنحطّ به إلى الدرك الأسفل نكالًا على كفره ، وقبيح فعله إلا الذين آمنوا به إيمانًا صادقًا وعملوا الصالحات فلهم أجر لا ينقطع أبدا، وذلك حيث يقول:﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ ۝٥ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ ﴾.

خُلق الإنسان بأحسن صورة من الإتقان، وأودع في نفسه الملكات المختلفة من الحب والبغض، والشدة والرقة، والرحمة والنقمة ، وغيرها من القوى النفسية التي يستطيع بها أن يعلي شأنه عند الله ، أو يحطّ منها على وفق استجابته لنداء الرحمان أو لنداء الشيطان، وعليه "ففي هذه الخصائص الروحية يتجلّى تفوق التكوين الإنساني ، فهو مهيأ لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق مقام الملائكة المقربين ، كما تشهد بذلك قصة المعراج .. حيث وقف جبريل عليه السلام عند مقام، وارتفع محمد بن عبد الله- الإنسان- إلى المقام الأسنى.

بينما هذا الإنسان مهيأ- حين ينتكس- لأن يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قطّ: ﴿ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ﴾ .. حيث تصبح البهائم أرفع منه وأقوم، لاستقامتها على

فطرتها، وإلهامها تسبيح ربّها، وأداء وظيفتها في الأرض على هدى ، بينما هو المخلوق في أحسن تقويم، يجحد ربه، ويرتكس مع هواه، إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.. فطرةً واستعدادًا.. ﴿ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ﴾.. حين ينحرف بهذه الفطرة عن الخط الذي هداه اللهّ إليه، وبينه له، وتركه ليختار أحد النجدين[1].

والتحليل العرفاني يظهر حيث إنّ الله خلق كل أعضاء الإنسان بصورة بديعة ، حتى قال عن نفسه ﴿فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ﴾ فمن شأن هذا الخالق بسبب فعله الأحسن الأكمل أن يُعبَد ويُتقرّبَ إليه بالعمل الصالح، وقد يظلم العبد نفسه بمخالفة فطرته التي فطرها الله ؛ لأنّه لم يترك في وجوده نقصًا يمنعه من الاتصال به ، أو لم يتركه تائهًا في مساره بل بيّن له طريقي النجاة والهلاك، وكان من الطبيعي أن يختار النجاة، ولكن بعصيانه وإلحاحه على الباطل خالف طريق النجاة، وبذلك كفر بنعمة الاهتداء، وأيضا نعمة الاستواء خلقا، فصار في أسفل سافلين، وهناك فريق آمنوا وعملوا الصالحات، وأدّوا حقّ النعمتين المذكورتين بالعمل الصالح فنالوا أعلى المنازل قربا من الله سبحانه، فأعطاهم إزاء ما أدّوا أجرًا عظيمًا يلازمهم أبدًا، فإن الله يولي أولياءه أجرًا أكثر مما قدّموا بين يديه.

لمسات عرفانية في تفسير سورة البينة

قال الله سبحانه في سورة البينة يصف حال الذين آمنوا به وعملوا الصالحات في الدنيا نيل رضاه فعدّهم خير بريّته، وأعطاهم وسامًا خالدًا يفتخرون به على الكفرة ، فضلا عن جزائه الجزيل في الآخرة ، حيث أسكنهم في جناته الناضرة التي تدهش العقول بمناظرها الخلابة خالدين فيها أبد الآبدين، وبينهم وبين الله علاقة روحية ممتعة حيث رضي عنهم ورضوا عنه، وما هذا الجزاء العظيم إلّا لمن اتقى الله سرّا وعلانية، وذلك حيث يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ

(١) انظر في ظلال القرآن، ٣ / ٣٩٣٣.

رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾.

إذا اختبر الله جل وعلا عباده وجرّبهم تمحيصًا ؛ لتمييز زيف فعالهم من صدقها، أنصف كلا الفريقين الفائزينِ والخاسرين على السواء، فكافأ الفائزين بجنات عدن وعاقب الخاسرين بعذاب السعير جزاء بما عملوا، فقد أعطى الله لمن يحمل بين جوانحه خلوص الإيمان ونور العمل الصالح ثلاثة: أولًا وسام علوّ المرتبة بين بريته، وثانيًا جنة الخلد، وثالثًا سمة التراضي بينه وبين عبده المؤمن حيث فيها الاستمتاع الروحي له، ما ينمّ على غاية القرب، وهذا المورد الأخير أجلّ العطايا الإلهية جزاء، وأمتعها لقلب العبد الصالح موقعًا، وما هذه الثلاثة إلّا للمتّقي الذي يرتدع عن المعاصي، فالخشية في قوله تعالى ﴿ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾، قال التستري: "الخشية سر، والخشوع علانية، من خشعت جوارحه لم يقربه الشيطان ، قيل: فما الخشوع؟ قال: الوقوف بين يدي اللهّ، والصبر على ذلك ، قال: وكمال الخشية ترك الآثام في السر و العلانية"(١).

وتحسن الإشارة إلى أنّ اسم الإشارة الذي ذكر للجمع البعيد في قوله: ﴿أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ جاء لغرض التفخيم وتعظيم شأنهم، ومثله قول الفرزدق مفتخرًا بآبائه:

أُولائك آبائي فجِئني بمثلِهِمْ إذا جَمعتْنا يا جريرُ المجامعُ

وقد ورد في تفسير قوله: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ﴾، روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام منها ما ذكر في تفسير البرهان عن أبي عبد الله ﷺ : "الله راض عن المؤمن في الدنيا والآخرة، والمؤمن وإن كان راضيا عن الله فإنّ في قلبه ما فيه، لما يرى في هذه الدنيا من التمحيص، فإذا عاين الثواب يوم القيامة رضي عن الله الحقِّ حقَّ الرضا، وهو قوله: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾، وقوله: ﴿ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي أطاع ربه ، روى محمد بن العباس: عن أحمد بن الهيثم، عن الحسن بن عبد الواحد، عن الحسن بن الحسين، عن يحيى بن مساور، عن إسماعيل بن زياد، عن إبراهيم بن مهاجر، عن يزيد بن شراحيل كاتب علي ﷺ، قال: سمعت عليًّا ﷺ، يقول: "حدثني رسول الله صلى الله عليه و آله وأنا مسنده إلى صدري،

(١)تفسير التستري، ١ / ٢٠١.

وعائشة عند أذني، فأصغت عائشة لتسمع إلى ما يقول، فقال: أي أخي، ألم تسمع قول الله عزّ وجلّ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ أنت وشيعتك، وموعدي وموعدكم الحوض إذا جثت الأمم تدعون غرًّا محجَّلين شباعًا مَرويِّينَ"[1].

يتمثّل العرفان المحض في هذه الآيات الشريفة، ولاسيّما في قوله: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾، فلا شكّ أنّ رضا الله من العبد غاية لا تدرك بسهولة، ويحتاج ذلك إلى جهاد النفس وترويضها على العمل الصالح والكفّ عن هواها كما مرّ سابقًا، ولكن لا بدّ من التوسّع في دلالتها العرفانية بشكل أعمق وأدقّ حتى ندرك متعة رشحاتها، وذلك لمّا رضي الله عنهم أرضاهم بما يثلج صدورهم ويروّح بالهم في الجنان حتى رضوا عنه، فهذا التعاطي الروحي بين العبد والمعبود في الرضاء يمثّل الجوانب العاطفية المبنية على أساس الاختبار الدنيوي، بتعبير آخر لما أبدى العبد رضاه في تحمّل الأذى في سبيل رضا الخالق بالسير على نهجه في الدنيا ، تجلّى حينئذ رضاء الله على وفق رضاء عبده في الآخرة، ومن هذا المنطلق ذُكر في الآية رضاء الله أولًا ثمّ رضا عبده عنه ، ولم يذكر عكس ذلك لما ذكرنا، والله أعلم.

لمسات عرفانية في تفسير سورة الزلزلة

قال الله في سورة الزلزلة يذكر منتهى عدله يوم الحساب، فإنه يجازي عباده على كل صغيرة لا يعتدّ بها سواء كانت خيرًا ، أو شرًّا، وذلك حيث يقول: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

إنّ الله سبحانه لا يضيّع أجر العاملين ، ولا يبخس حقوقهم قيد أنملة ، كما أنه لا يتجاوز عن عقاب المسيئين كذلك، فالمراد من قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ﴾ أي مقدار نملة صغيرة ووزنها خَيْراً يَرَهُ أي ير جزاءه في الجنة، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ أي جزاءه في النار هذه الآية أحكم آية وأقسطها من الآيات الدالّة على كمال العدل الإلهي

(١) البرهان في تفسير القرآن ، ٥ / ٧١٩-٧٢٠

وأشملها حكمًا[1].

فليس في العالم بأسره جهاز متطوّر دقيق ، أو آلة حديثة تتمكن من إحصاء ، أو زنة الذرات المادية ذرةً ذرةً فكيف بزنة الأعمال خيرها أو شرها على نحو ما ذكر الله جل وعلا، حيث إنّهما من الأمور العقلية الاعتبارية، وإعطاء كلّ من فاعلهما حقّه من الجزاء يوم الحساب، فهذا ما يدلّ على علمه التفصيلي الحضوري حيث لا وساطة ولا تصوّر بل بمجرد عمل العبد تتجلى حقيقة فعله خيرًا أو شرًّا عنده مهما كان صغيرا، وتسجّل آثاره في صحيفة أعماله، وعندها سيقول المجرمون المذنبون ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[سورة الكهف:٤٩].

و تجدر الإشارة إلى أنّه "ليس المراد برؤية الأعمال تجرّد الرؤية، و إنّما المراد هو ما وراء هذه الأعمال من جزاء .. فالعمل الطيب إذا رآه صاحبه سرّ به، و رأى فى وجهه البشير الذي يحمل إليه رحمة اللهّ ورضوانه فى هذا اليوم العظيم.. والعمل السيء إذا رآه صاحبه حاضرا بين يديه فى مقام الحساب، ساءه ذلك، وملأ نفسه حسرة وغمًّا، إذ كان هو الشاهد الذي يشهد بتأثيمه وتجريمه"[2].

ويظهر التحليل العرفاني إذا ما لاحظنا قمة العدل الإلهي، ومن ثمّ على رغم معرفتنا بذلك نعصي من لا يفوته شيء، فالربّ الذي ينصف عباده فمن الجدير التوجّه إليه ، والنظر إلى وجهه الكريم ، حيث إنّه يثمّن العمل الصغير الذي ربما يعدّ في أنظار الناس سقطًا تافهًا، ولكن عنده سبحانه له الأجر العظيم، وكل ذلك من الشواهد القاطعة على حبّه لخلقه ، وتشجيعهم على التزوّد من الخيرات ولو كانت صغارًا استصلاحًا لأمرهم؛ حيث إنّه يبارك فيها بفضله الوافر، ولكن يحاسبهم على اللّمم بقدرها ولا يضخّم حجمها إذا لم يصرّوا على اقترافها، وذلك ما يعدّ فضلًا آخر منه، ألم يكن كل ذلك من شدّة حبه لخلقه، واهتمامه البالغ

(١) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية ، ٢ / ٥٢٤.
(٢) التفسير القرآني للقرآن ، ١٦ / ١٦٥٣.

بهداية عباده؟.

## خاتمة البحث

قد توصّلت هذه الدراسة العرفانية في جزء الثلاثين من القرآن الكريم إلى نتائج متعددة نرصف أهمّها على حسب ما يلي:

١- ما يذكره الله في آيات الجنان ونعمها يدلّ على تشجيع العبد ؛ ليتقرب من الله سبحانه إشفاقًا وحبًّا له حتى تتوثق الصلة بينهما، وحثّه على الخيرات وإن كانت صغارًا ينمّ على فضله لعبده حيث يبارك فيها ويعفو عن كثير.

٢- ما يريده الله لعباده هو التزكية والتحري عن كل ما يحول دون الفطرة الإلهية، وإنّه سبحانه أحيانًا يريد بكل الوسائل الإبلاغية والإعجازية أن يخلّص أظلم الناس كفرًا وطغيانًا ؛ عبر شدّ انتباههم بالأساليب المختلفة من الترفق والتلطف ، والعتاب والتذكير ، وأحيانًا الدعاء عليه من فرط حبّه لهم كما في قصة النبي موسى، وقصة ابن أم مكتوم.

٣- بعض الآيات التي تصف حال المؤمنين والكافرين تدع الإنسان أن يفكّر في مآله ليختار لنفسه ما يزكّيها في الآخرة، فإنّها تتمتع بالبعد النفسي والعاطفي أكثر مما تتمتع بالبعد الردعي والتهديد، وما ذلك إلى رحمة من رب العالمين لعباده.

٤- يجزي الله عباده الصالحين بعنايته الشمولية حتى يستشعروها بملء وجودهم بنظرة غيبية ؛ لأنّها عين نظرة الحبيب الشيّقة إلى حبيبه.

٥- إن الله يدعو الخلائق كافة إلى تسبيحه ومناجاته حبًّا لهم وشوقًا إلى محاكاتهم، حتى لا تمنعهم الأمور الدنيوية من مواصلة تلك العلاقة الروحية.

٦- كلما اقترب العبد بعبادة معبوده انقطعت علقته من الدنيا، فإذا كانت النفس فارغة من زخارفها وعلائقها ازداد اطمئنانها وسكينتها ، حيث خلق الإنسان للكمال ومعرفة معبوده ، وعليه فالآيات العرفانية بمنزلة برمجة تربوية للنفس البشرية نيلًا للسعادة.

٧-التعاطي الروحي بين العبد والمعبود في الرضاء يمثّل الجوانب العاطفية المبنية على

أساس الاختبار الدنيوي ، حيث إنّ تحمّل أذى العبد في سبيل رضاء خالقه يتجلّى فيه رضاء الله لعبده في الآخرة.

## المصادر والمراجع


١. القرآن الكريم.

٢. البرهان في تفسير القرآن، البحراني، السيد هاشم، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية مؤسسة البعثة في قم، طهران: بنياد بعثت، ط١، سنة الطبع١٤١٦ق.

٣. تفسير ابن العربي، ابن العربي، محي الدين أبو عبدالله، بيروت: دارإحياء التراث العربي، سنة الطبع ١٤٢٢ق.

٤. تفسير التستري ، التستري، سهل بن عبدالله، بيروت: منشورات محمد علي بيضون–دار الكتب العلمية، سنة الطبع١٤٢٣ق.

٥. تفسير القرآن الكريم ، ملا صدرا الشيرازي، محمد إبراهيم ، قم: انتشارات بيدار، سنة الطبع: ١٣٦٦ش.

٦. التفسير القرآني للقرآن، الخطيب عبدالكريم، (د.ت).

٧. التفسير القمي ، القمي، علي بن إبراهيم، قم، دار الكتاب، سنة الطبع: ١٣٦٧ش.

٨. تفسير الكاشف ، المغنية، محمد جواد، طهران: دار الكتب الإسلامية، سنة الطبع ١٤٢٤ق.

٩. تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة ، الگنابادي، السلطان محمد، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، سنة الطبع: ١٤٠٨ق.

١٠. تفسير روح البيان، حقي بروسوي، إسماعيل، لبنان: دار الفكر، (د.ت).

١١. تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيشابوري، حسن بن محمد، لبنان: دار الكتب العلمية، سنة الطبع ١٤١٦ق.

١٢. رسالة التوحيد والنبوة والإمامة، القيصري، داود بن محمود، (د.ت).

١٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، الآلوسي، السيد محمود، لبنان: دار الكتب العلمية، سنة الطبع ١٤١٥ق.

١٤. فصول في أصول التفسير، الطيار، مساعد بن سليمان، تقديم: محمد بن صالح الفوزان، (د.ت).

١٥. الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، النخجواني، نعمة الله بن محمود، مصر: دار ركابي للنشر، سنة الطبع ١٩٩٩م.

١٦. في ظلال القرآن ، السيد قطب، ابن إبراهيم الشاذلي، بيروت –القاهرة: دار الشروق، سنة الطبع١٤١٢ق.

١٧. كشف الأسرار وعدة الأبرار، الميبدي، رشيد الدين أحمد بن أبي سعيد، طهران: انتشارت أمير كبير، سنة الطبع ١٣٧١ش.

١٨. لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، قم: نشر أدب وحوزة، سنة الطبع١٤٠٥ق.

١٩. لطائف الإشارات ، القشيري، عبدالكريم بن هوازن، تحقيق: إبراهيم البسيوني، مصر:الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، (د.ت).

٢٠. مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، فضل بن الحسن، طهران: ناصر خسرو، سنة الطبع ١٣٧٢ش.

٢١. مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، النووي الجاوي، محمدبن عمر، بيروت: دار الكتب العلمية، سنة الطبع١٤١٧ق.

٢٢. مفاتح الغيب ، الرازي، فخر الدين أبو عبدالله محمد بن عمر، بيروت: دارإحياء التراث العربي، سنة الطبع١٤٢٠ق.

٢٣. الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، السيد محمد حسين، قم، دفتر جامعة مدرسين حوزه علميه، سنة الطبع١٤١٧ق.

## المصادر والمراجع غير العربية

١- أنوار درخشان، الحسيني الهمداني،سيد محمد حسين، تهران،كتاب فروشي لطفي، سال چاپ ١۴٠۴ق.

٢- مخزن العرفان در تفسير قرآن، بانوي إصفهاني، سيدة نصرت أمين، تهران: نهضت زنان مسلمان، سال چاپ١٣۶١ش.